وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

شخصيات إفريقية



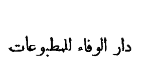
عبده بدوي



عبده بدوى

شخصيات أفريقية

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والارشاد القومى
الادارة العامة للثقافة


دار الوفاء للمطبوعات

مقدمة

للسيد الأستاذ عبد العزيز وصفى

وكيل وزارة الثقافة والإرشاد القومى المساعد

لم تلق إفريقية اهتماما من العالم مثلما تلقاه فى هذه الأيام ، حتى ليمكن القول بأن هذا العصر ليس عصر المكتشفات العلمية ، والوصول إلى نتائج باهرة فى الأبحاث قدر ما يسمى « عصر إفريقية » .

ففيه اكتشفت القارة نفسها ، واهتدت إلى مواطن قوتها ، فإذا هى صحوة وحرية وفجر جديد ! فجر رأينا فى ضوئه الأجزاء المشلولة تنهض ، والمناجم المعتصرة تمتلىء ، والغابات الصامتة تصرخ ، والجبهات السود تزحم القوى الدخيلة وتحولها إلى عرق يتساقط عند الأقدام ، والسماء الفارغة تمتلىء بعلم كبير هو علم الحرية الأسود الكبير .. يتحرك يمينا فيحرر كل الدول التى سرت فيها الحياة ، ويتحرك شمالا فيزلزل كل الدول التى لم تنهض بعد ، فإذا هى تتململ ، وإذا هى تتأهب ، وإذا هى تضع أيديها على مقدراتها ثم تصيح بكلمة الحرية « أو هورو » ! .

ولعل ما يساعدها على هذا النوع من « البعث » الذى لم تفز به عقب الحربين العالميتين الماضيتين هو نضوج الرأى العام العالمى ، وبخاصة فى إفريقية وآسيا معا ، فجميع القادة فى هاتين القارتين وراء كل رمح يصرخ بالحرية فى الغابة ، ووراء كل قلب يدعو إلى الحياة الكريمة فى المدينة ، ومع أن هذه الأصوات قد ارتفعت بعد أن استنزفت القارة ، وامتصت حيواتها ، وأصبحت ترفا يشاهد فى إنجلترا ، ويلمس فى فرنسا ، ويعربد فى بلجيكا ، ويحس فى البرتغال ، ويتلمس فى أسبانيا ،

ولا يستطيع أحد أن ينكره فى أمريكا ، ورغم أن كل إنسان فى هذه الدول قد دخل حياته « وجود مسروق » من إفريقية قد يكون هزالا فى أجسام الأطفال الآن ، وجهلا فى نفوس الصبية ، وانكسارا فى أعماق الشباب ، وغيظا فى رعشة الشيوخ ، رغم كل هذا فإن إفريقية تنهض الآن قوية ، جبارة ، ممتلئة بالرغبة فى تطوير الحياة ، وفى إشاعة السلام ، وتحقيق الحياة الكريمة لكل البشر .

. . . ومع أن الشعب الإفريقى هو الذى حمل عبء ما حصل عليه من مكاسب غارقة فى الدماء ، إلا أنه كان يتجسد فى زعامات صادقة ، نبعت من خلاله ، وتطورت من داخله ، وأصبحت فى حد ذاتها « شعوبا صغيرة » تحمل سمات كل الشعوب التى حققت لها انتصاراتها ، ومن هؤلاء الزعماء الذين أصبحوا « رموزا » لشعوبهم . . هذه الشخصيات التى تعتبر مادة هذا الكتاب الذى يعتبر أول كتاب فى العالم العربى يؤرخ لإفريقية من داخل رجالاتها !

فما يشكر للأستاذ الشاعر عبده بدوى « أنه يقدم لنا الأحداث والأجواء الإفريقية من خلال الرجل الإفريقى » داخل القارة وخارجها بحيث تتكامل عند القارىء صورة واضحة لكل ما مر بهذا الإنسان فى صراعه من أجل الحرية ، وستبقى الصورة حية دائما لأنه رسم فيها الإنسان قبل الأحداث .

عبد العزيز وصفى

الإمام علي بن أحمد

من الدعوات الجماعية لحركات التحرير الكبرى فى العالم تلك الحركة التى قام بها « على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن يزيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب » ، والتى كانت تهدف أول ما تهدف إلى رفع الروح المعنوية بين هذه الفئة المستضعفة من العبيد ، فقد استبعدوا من المجتمع حتى اضطروا إلى الحياة على هامشها وإلى الانحصار فى منطقة فقيرة تسمى « السباخ » على أطراف البصرة .

وهناك كانت حياتهم شبه حياة ، فقد كان محرما عليهم أن يمارسوا ما يمكن أن يمارسه الإنسان ، كانوا طائفة مهزومة تسير وفى آذانها وقع السياط ، وفى ضميرها الانسحاب ، وفى نفسها وقع رتيب للروح المرهقة التى لا تجد الأمن فى أى وقت من أوقات النهار ، أو الليل ، فعملها قاصر على الخدمة ، وتنظيف المدينة ، وجمع الفضلات ، وتكديسها خارج البصرة ، ومن هنا أطلق على المكان الذى يضمهم اسم منطقة « السباخ ! » .

وإلى جانب هذه الطبقة المظلومة ، كانت توجد طبقة أخرى محزونة ترى نفسها الوارثة الحقيقية للخلافة ، ولكن الضغوط السياسية تميل بهذا الحق عنها إلى الأمويين مرة ، وإلى العباسيين أخرى ، مع أنها أحق منهم فى قيادة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف .

ولكن الظروف كانت تبعد دائما هؤلاء العلويين ، وتضغط عليهم ، وتجعلهم ينطوون على أنفسهم ، وينسحبون من المجتمع ، وفى عيونهم دموع مكتومة يجاهدون

فى كتمانها بكبرياء ، ولـكن « دموع الـكبرياء » هذه كانت تتساقط منهم بين الحين والآخر ، وبخاصة حينما كانوا يذكرون أن الزمان قد تغير ، وأن قلوب الناس وإن كانت معهم إلا أن سيوفهم ـ وهى التى كانت الحد الفاصل فى أمور الخلافة ـ كانت مع الآخرين ! دائما مع الآخرين يوما بعد يوم ! وعاما بعد عام ؟

وقد كان يمكن أن يتغير وجه الثورة المعروفة فى التاريخ « بثورة الزنج » لو لم تهيء لها الظروف إنسانا يجمع فى ضميره بين قسوة الظلم ، ودبيب الحزن فى وقت واحد ، ولـكن الظروف قد جمعت هذين العاملين فى نفسية الإمام « على بن أحمد » فنسبه يمتد إلى « على بن أبى طالب » ، وهو فى الوقت نفسه وطيد الصلة بالزنوج ، ذلك لأن العلويين أمام الضغوط السياسية عليهم ، وحرمانهم من الحقوق التى يجب أن تتوافر « للمواطن المسلم » كانوا يميلون أكثر ما يميلون إلى التزوج من الإماء الزنجيات ، لأن الإماء البيض فى سوق الرقيق كن أرفع ثمنا من هؤلاء الزنجيات ، ولذلك نرى إقبال العلويين على التزوج من الإماء الزنجيات . . ومن واحـدة من هؤلاء ولد الإمام « على بن أحمد » .

ثم إن هذا الزعيم من ناحية أخرى كانت تنصبُّ فى نفسه ـ وقد ساعد عليها لونه الأسود ـ تلك « الأحزان العلوية » التى تلقاها علوى عن آخر حتى انتهت إليه شاحبة ، مروّعة .

ومن هنا كان هذا الانعطاف الذى أحسه نحو هؤلاء المظلومين الذين سلبهم المجتمع حقهم من الحرية ، فـكان يقبل عليهم فى غدوّه ورواحه ، ويظهر لهم من عطفه ما يجعلهم يقبلون عليـه ، ومن إيمانه بالإنسان ما يجعلهم يعتزون بأنفسهم ، ويحلمون بيوم تتحقق فيه حريتهم تحت راية كبيرة هى « الراية العلوية » .

فقد كان يجد نفسه مدفوعا إلى أن يحدثهم عن المساواة ، والعدالة بين جميع البشر بصرف النظر عن لون البشرة ، وأن من حقهم أن يرفعوا رءوسهم التى أصبحت

ثقيلة من كثرة ما أطرقوا إلى الأرض ، وأن من حقهم كذلك أن يمارسوا حياتهم كاملة فيسكنون المنازل ذات الحدائق المزهرة ، ويركبون الخيل ، ويمتلكون الأرض ويتاجرون ، ويتكلمون فينصت الناس إليهم ، وما أشد ما كانت تثيرهم هذه الكلمة الأخيرة ، فقد كانوا محرومين من أن يتحدثوا بما فى نفوسهم إلى المجتمع ، وكثيرا ماضمهم الليل وهم يشكون من جرح ، أو جوع ، أو إهدار كرامته إلى الحيوانات التى كانت تكثر فى منطقتهم ، فهى الوحيدة التى كانت تنصت إليهم ، وتحملق فى وجوههم دون سخرية ! .

وما كادت هذه النفوس تعتنق دعوة الحرية ، وتعتبره « المخلص » الذى ستذوق الحرية من راحته حتى نراه يؤذن بالثورة فى عيد الفطر من عام ٢٥٥ هـ ، ويعبر نهر « دجلة » فيتجمع العبيد من حوله تاركين أعمال السخرة التى كان يجبرهم عليها السادة ، وحين يطالب بهم هؤلاء السادة يطالب لهم بالحياة الكريمة ، وحين يروا تشدده يذهبون جميعا لمفاوضته ، وتدور هذه المفاوضة حول أن يقدموا خمسة دنانير عن كل عبد يعود إلى مكانه من خدمتهم حتى لاتتوقف حياتهم التى تعتمد أساسا على هؤلاء العبيد ، ولكنه يذكرهم أنه قام لرفع الظلم عنهم ، ولتحقيق المساواة بين الناس ، وأن هؤلاء السادة لايختلفون عن العبيد فى شىء حتى يستعبدوهم ويسلبوهم حريتهم .

وحين يغضب هؤلاء السادة ، ويرفعون أصواتهم عليه ، ويجاهرونه بالعداء نراه يأمر بأن يطرح كلٌّ عبد سيده ، وأن يضربه خمسمائة جلدة ليتأكدوا أن السياط التى طالما ضربوا بها هؤلاء العبيد تؤلم ، وتحرق ، وليعطى شيئا من تحقيق الذات لهؤلاء العبيد الذين ارتعدوا فى أول الأمر وهم يرفعون السوط الأول على سادتهم ، ولكن أيديهم جمدت بعد ذلك وأخذت تعلو ، وتهبط ، فى قوة ، وتشف وغضب قديم .

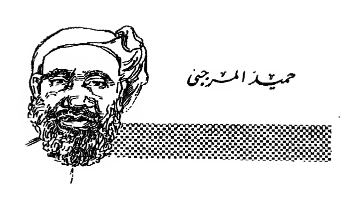
ثم نراه يدخل البصرة على رأس هؤلاء العبيد ، وعلى رأس جنود كثيرين من « البحرين » التى كان يقيم فيها فى أول الأمر ، ونراه يبيح لهم « البصرة » ثلاثة أيام يفعلون بها مايشاءون ، ولكن الثورة كانت أقوى منه بحيث لم يستطع كبحها وبخاصة حينما علم أنه قتل فى يوم واحد ثلاثمائة ألف منهم كثير من العلماء .

وتستمر هذه المعارك فى البصرة ، وفى المناطق المجاورة التى أخضعها ، ولكننا نرى هؤلاء السادة يكيدون له ، ويتجمعون فى تشكيل موحد للقضاء عليه ، ويستصرخون الخليفة العباسى الذى يرسل لهم بدوره القائد التركى « رميس » على رأس جيش كبير مزود بالسلاح ، وينضم السادة بدورهم إلى هذا الجيش ، ويبذلون المال فى سبيل القضاء على هذه الثورة الاجتماعية التى اعتبروها موجهة ضدهم قبل أن تكون موجهة إلى الجهاز الحاكم .

وفى إحدى هذه المعارك التى دارت بعنف ، ووحشية ، قتل الإمام « محمد أحمد » بعد أن تركت دعوته آثارا تدميرية فى البلاد أشهرها الحريق الكبير الذى لف البصرة بناره ، ووهجه ، هذا عدا القتلى الذين قدرهم بعض المؤرخين بمليون ونصف .

وهكذا تلاقت مصلحة الخليفة مع الطبقة العليا فى المجتمع ، وتحالفتا للقضاء على هذه الثورة التحررية التى كان يمكن لو نجحت أن تغير من قضايا التاريخ ، فكان يمكن القضاء على الرق فى هذا الوقت المبكر ، وكان يمكن بقاء هؤلاء الملايين من الإفريقيين فى بلادهم بدلا من عرضهم كالسلع فى كافة بلاد العالم وعيشهم حياة حزينة فى كل بلد قصدوه ، ولما سمعنا فى الوقت نفسه عن اندحار الزنوج فى أمريكا والتفرقة العنصرية داخل القارة نفسها .

فما أجدر هذا الإمام العلوى الأسود بتمثال ضخم يقام له فى قلب القارة ، وما أجدر أن يسمى تمثاله بتمثال الحرية . !



عرف القرن التاسع عشر فى إفريقية عدة ثورات عربية وقفت بعناد وصلابة أمام قوى الغرب التى كانت قد وضعت فى مخططها احتلال القارة ، وتقسيمها فيما بينها بوسائل متعددة كالكشف ، والتبشير ، والشركات ، والمعاهدات .. ومن وراء كل هذا قوة السلاح .

ولو قدر لهذه الحركات العربية أن تتلاقى ، وتتفاعل لامتنعت القارة على هؤلاء المغتصبين ، ولما عرفت الاستنزاف ، والتدمير ، والتفرقة العنصرية ، ذلك لأن هذا القرن قد عرف ثورات السلطان سعيد فى زنجبار ، وأحمد عرابى فى مصر ، والزبير باشا فى حوض النيل الأعلى ، والسلطان رابح فى حوض تشاد ، والإمام المهدى وخليفته في السودان ، وماء العينين فى موريتانيا . . وكذلك ثورة « حميد بن محمد ابن جمعة المرجبي » فى حوض الكونغو ، وكلها كانت موجهة ضد الغزو الأوروبى وإن كانت نقطة الضعف فيها جميعا أنها — لطبيعة العصر — لم تتكتل أمام التقدم الأوروبى ، ولذلك كان من السهل القضاء عليها جميعا الواحدة بعد الأخرى .

ويعتبر « حميد المرجبى » أو « تيبوتيب » كما يسمونه واحدا من هؤلاء الذين خدموا قضايا العروبة والإسلام فى القارة ، تلك الرسالة التى كان مهيئا لها بحكم ظروفه ، فنسبه يمتد إلى قبيلة « المرجبية » التى قدمت من الجزيرة العربية ، وظلت

تتغلغل فى الشرق الإفريقى حتى أقامت فى زنجبار . . وفى جزيرة زنجبار هذه ولد « تيبوتيب » عام ١٨٣٢ .

وقد كان من عادة قبيلته — كـكافة القبائل العربية المهاجرة — التغلغل فى القطاعات المجاورة لها ، فالقارة كانت تغريهم بالتعمق فى قلبها ، وقد كان من هؤلاء الذين سحروا بها والده ، الذى رأى نفسه عاجزا عن كسب القوت لأسرته ، وتوفير التعليم لابنه الذى وقف به عند القراءة ، والـكتابة ، وحفظ القرآن . . ومن هنا نراه يودع أسرته الصغيرة ، ويذكر أنه سيعود إلى بيته الخالى بالرزق الـكثير ، ولـكنه ذهب ولم يعد إلى هذه الأسرة .

وحين يبلغ الثانية عشرة يذكر لأمه أنه عزم على اقتراض مبلغ سيشترى به كمية من الملح ثم يبيعها فى القرى المجاورة ، وحين يرى الدمع فى عينيها ، يذكر لها أنه سيتقصى فى كل مكان يذهب إليه أنباء والده ، وتتلفت الأم حولها فلا تجد فى البيت شيئا يمسك عليهما حياتهما عدة أيام ، وتجد نفسها مضطرة إلى أن تبتسم فى وجهه ، وتشجعه على الرحلة ، ويبتسم هو الآخر بينما يؤكد لها أن رحلته لن تتعدى مابين « زنجبار » إلى « دار السلام » وهكذا يفترقان على ابتسام .

وقد ظل على هذا الحال عدة شهور ، ولـكنه يهتدى إلى أن والده قد وصل إلى بلدة « تبوزة » ، وأنه قد تزوج ابنة سلطان هذا البلد ، فلا يفكر فى العودة وإنما يواصل السير إلى «تبوزة» وهناك يلتقى بوالده ، وبالسلطان الذى أحبه وقربه إليه ، وبخاصة حينما اشترك فى رد غارة شنها على مملـكته سلطان آخر ، ثم واصل « تيبوتيب » حملته على السلطان المناوئ لصهر والده ، واستطاع أن يتغلب عليه ، وأن يقيم نفسه سلطانا بدلا منه ، ثم أخذ يتوسع فى مد سلطانه ، ويؤمن الطرق التى تسير فيها قوافله التجارية ، وينشر الأمان والطمأنينة بين السكان ، ويقدم المساعدة — بطيبة نفس — إلى هؤلاء الرواد من المـكتشفين الذين وفدوا إلى القارة مثل « سبيك » و « لفنجستون » ، و« ستانلى » .

وقد أصبحت بعد فترة قصيرة تلك الرقعة الكبيرة التى تمتد من الساحل الإفريقى الشرقى إلى حوض نهر الكونغو الأعلى خاضعة لتيبوتيب ، وقد خشى العالم الغربى قيام دولة عربية فى قلب القارة ، فكان أن عمل على حصارها ، والتدخل فى شئونها وكان أن كلف الملك ليوبولد الرحالة « استانلى » بالعمل على جمع التوقيعات من الزعماء المحليين لقيام مملكة له فى هذه المنطقة ، وليتكئ على هذه المعاهدات حينما تنافسه دولة أخرى فى الزحف عليها ، وقد تم له بالفعل ما أراد فى مؤتمر برلين الذى عقد فى (١٨٨٤ — ١٨٨٥) .

وكان لابد من الاصطدام بين الفريقين ، وقد بدأ هذا الاصطدام حينما طلب القنصل البلجيكى إخضاع تجارة العاج لإشرافه ، فكان الرد على طلبه هذا أن اعتقله سيف بن تيبوتيب ووقع عليه حكم بالجلد والحبس لمدة عامين من قائد جيش والده « راشد بن محمد » ولكن « تيبوتيب » أوقف هذه الحملة .

وقد روع الإنجليز لهذه الجرأة وكان أن طلب قنصلهم السماح للبلجيكيين بالاتجار فى هذه المنطقة فى مقابل أن يدفعوا لتيبوتيب خمسة وستين جنيها فى الشهر ، وحين رفض تيبوتيب هذا الطلب ، ذكره بأن حكومته تصر على هذا ، وأن البلجيكيين قد حصلوا منها على وعد بمعاونتهم فى هذه المنطقة ، وفى الوقت نفسه أخذوا يثيرون القبائل الإفريقية عليه ، ويكونون جبهة ضده داخل الكونغو ، وكان نتيجة هذا كله ثورة عارمة بين العرب والبلجيكيين ، وترحيل لجميع الأجانب عن الكونغو ، ثم تلك المعركة المدمرة التى وقعت بين الفريقين وقتل فيها ابنه « سيف » ، والتى استطاع فيها البلجيكيون أن يضعوا أيديهم على ثروة « تيبوتيب » التى قدرت بمائة ألف جنيه كما فرض عليه الإنجليز أن يبتعد عن هذه البلاد إلى « زنجبار » التى توفى فيها عام ١٩٠٥ .

ولعل الحوادث القريبة فى الكونغو تساعدنا على تجسيم الحوادث حينما نعرف أن

إقليمى « كاساى » ، « وكاتنجا » كانا تابعين لتلك الدولة العربية التى أقامها فى الـكونغو « تيبوتيب » .

ولعل ما يرقرق الدمع فى العين قول « جرينفل » الذى كان وزيرا للدولة فى حكومة لومومبا : « . . . لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الـكونغو فليست مدينة « ساتنلى فيل » سوى مدينة « تيبوتيب » الذى أقام هذه المدينة قبل قدوم الرحالة «ستانلى» ، وليس العرب كما قالوا لنا تجار رقيق ، وإنما هم تلك الموجة الإنسانية التى اختلطت بنا ، وصاهرتنا وتركوا لنا لغة متولدة من لغتهم ، ودينا ، وحضارة وسماحة تسوى بين كل الناس ، كما تركوا على أرضنا دماءهم والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة . . وليس أعز علينا شىء من هذا الدم العربى الذى سال فى المـاضى كما سال ويسيل دمنا الآن فى بلادنا على أيدى نفس أعداء العرب فى القرن المـاضى . »

الودّاد محمد بن عبد الله حسن *

تعتبر الفترة التى تقع بين عامى ١٨٨٣ و ١٨٨٨ من أقبى الفترات التى مرت بالصومال ، ذلك لأنها كانت فترة التحضير للاحتلال ، والاستعداد للاجهاز الكامل على كل مقومات الدولة الصومالية ، حتى لقد سميت هذه الفترة « فترة الأعلام المتنقلة » ، لأن الدول المستعمرة أطلقت فريقا من مناصريها يحمل أعلامها ، لتركيزها على أكبر مساحة من الأرض المباحة ، فى هذا القطاع الكبير الذى كان يمتد فى أول أمره من خليج تاجورة حتى مصب نهر تانا .

.. وقد مهد لهذه الفترة بعض المستكشفين مثل العالم الفرنسى «روشيه ديريكور» .

ثم بدأت الضربات على قلب هذه الأمة بالتقدم الفرنسى الذى كان يرمى إلى فتح أبواب للتجارة ، وإقامة محطة للتموين ، ومخزن للفحم ليساعد كل هذا على تزويد بواخرها التى تتردد بين أوروبا والشرق الأقصى ، ثم لتقيم لنفسها قطاعا كبيرا فى الشرق الإفريقى بوساطة حليفها نجاشى الحبشة ، الذى رأى نفسه مضطرا إلى الارتماء فى أحضان فرنسا ، بل والتنازل عن جزء من بلاده معاندة فى الإنجليز الذين كانوا يساعدون « تيودور » على المطالبة بعرشه ، كما ساعدهم على تثبيت أقدامهم على خليج « أوبوك » والأراضى المجاورة لعدن ، أنهم وجدوا طائفة من الزعماء المحليين على رأسهم « ودنى أحمد أبو بكر » يبيعون لهم هذا القطاع الضخم بما يعادل ٥٠٠٠٠ فرنك .

ثم كانت الضربة الثانية حينما ثبت الإنجليز أقدامهم فى عدن ، وحينما عملوا على

(*) كلمة الوداد معناها فى اللغة الصومالية (المعلم)

إخلاء الصومال من المصريين الذين كانوا يضعون أيديهم على المنطقة التى تمتد من خليج تاجورة إلى رأس جافون ، لأن خطتهم كانت ترمى إلى تصفية الحكم المصرى فى إفريقية ومن هنا يمكن الربط بين احتلال الصومال ، وبين إخلاء السودان من الحكم المصرى فى هذه الحقبة من التاريخ .

ولم يقف الأمر عند حد هاتين الدولتين بل تعداهما إلى إيطاليا وألمانيا اللتين تدخلتا فى هذه المنطقة .

وقد شهد كل هذا الصراع « الوداد محمد بن عبد الله حسن » الذى ولد فى منطقة «ضلبهانته» التى تزدحم بقبيلته «باه قرى» من «الأوجادين» ، ولم يعرف عن طفولته سوى أنه تلقى التعليم الدينى الذى كان طابع العصر ، ثم عمل ملاحا على سفينة . على أن الحياة لم تأخذه من واقعه الدينى الذى يعيش فيه ، والذى ظل يغريه بالسفر المتواصل إلى مكة لتأدية فريضة الحج أكثر من مرة ، فقد كان بداخله شىء يلح عليه بأنه لابد من ثورة تجمع بلاده المتناثرة هنا وهناك ، ولما كانت ثورات هذا العصر لا تتنفس إلا من خلال « الدين » نراه يستعد للقيام بهذه الشحنة الروحية من أجل بلاده الممزقة .

ومن هنا نراه ينخرط فى السلك الصوفى ، ويصبح مريدا للشيخ «محمد صالح» شيخ الطريقة الصالحية المنتشرة هناك ، وقد أخذ على عاتقه نشرها فى بربرة عام ١٨٩٥ ، ثم نراه يتنقل من مكان إلى آخر فى الصومال ، وفى كل مكان يقيم فيه يكتسب أنصارا ، ويقيم مسجدا ، فإذا تم له ما أراد ورغب أهل بيته فى إقامته الدائمة بينهم أشار لهم إلى المسجد وقال « هذا هو كل ما تحتاجون إليه ففيه ربكم الذى أنتم فى أشد الحاجة إليه » ! .

ثم يكيد له الزعماء المحليون حين يرون ولاء الناس ينتقل منهم إليه ، وحين كان يذكر الشعب بأن ضعف هؤلاء الزعماء هو الذى وضع أيدى الغربيين على

بلادهم ، بل وسمح لمنليك ملك الحبشة كذلك أن يضع يده على « هرر » ، ولما كان لا بد له من تجميع طوائف الشعب من حوله ، نراه يعلن أنه « المهدى المنتظر » ، والمهدية فى هـذه الفترة كانت الشعار الدينى الذى يمكن به جمع المواطنين فى المجتمع الإسلامى ، وتجنيدهم أمام القوى الدخيلة ، ولذا نراها تتعدد فى هذه الفترة فى أكثر من مكان بإفريقية ، ولغرض واحد هو « الدفاع » عن الإسلام ضد التقدم الأوروبى فى إفريقية .

وقد كانت هذه الدعوة تعطى ثمارها دائماً ، فنحن نرى أن الناس قد التفوا من حوله . وآمنوا بدعوته إلى تحرير البلاد ، وقد أعلنها مدوية أن ثورته لن تقبل فى بلاده ، « مشركا » ، وكان يقصد بكلمة المشركين هذه أولئك الأجانب الذى احتلوا البلاد بالمكر ، والدهاء ، لأنه عامل الأديان الأخرى فى بلاده بسماحة الإسلام ، واحترامه للانسان ، ثم توسع فى هـذا « المفهوم » حين ذكر أن كل من يقعد عن الجهاد تحت رايته يعتبر مشركا كذلك ، ويعامل معاملة الأجانب .

وبدأ الحرب بمناوشته الإنجليز لإرغامهم على ترك البلاد ، ولـكن الإنجليز أرسلوا إليه أربع حملات مسلحة للقضاء عليه ، فكان نصيبها جميعا الفشل ، وقد استفاد « مهدى الصومال » من هذه الحملات ، لأنه استطاع أن يغنم منها السلاح الـكثير الذى دفع به إلى أنصاره .

وقد روعت انجلترا لهذا الفشل ، وأرسلت عدداً من رجالها للبحث فى قوة هذا الرجل ، واكتشاف نقطة الضعف فيه ، واهتدت هـذه البعثة إلى أنه يمكن القضاء عليه ، إذا ما وقفت إيطاليا ، وإثيوبيا إلى جانب بريطانيا ، وإذا ما أوقفت فرنسا الأسلحة التى تبعث بها إليه لإضعاف النفوذ البريطانى .

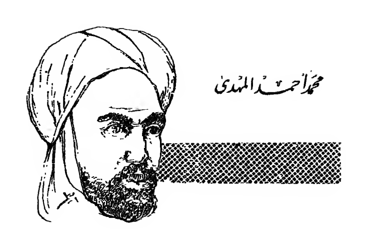
على أن هذه القوى الصاعدة لم تزعج انجلترا إلا حينما أظلت الحرب العالمية

الأولى العالم ، فقد كان العالم الإسلامى ينظر إليها بإعجاب ، ويعتبرها حركة إسلامية موفقة فى شرق القارة الإفريقية ، وقد رد « مهدى الصومال » هـذا الجميل للعالم الإسلامى بإعلانه الجهاد العام ضد كل الدول المستعمرة التى تبسط سيطرتها على المسلمين فى الهند ، ومصر ، والسودان ، والشمال الإفريقى ، وآسيا .

وقد خشيت انجلترا من هذا « المد الإسلامى » الذى كان قد وقف يناوئها فى هذه الفترة فى اليمن ، وطرابلس ، ودارفور .

وكذلك رأت إيطاليا وفرنسا أن « مهدى الصومال » يشكل خطراً على ممتلكاتها فى إفريقية ، ولذا نرى الجميع يتعاونون للقضاء على حركته بوسائل الحرب الحديثة ، وبالخبرة التى تمت لهم فى الحرب العالمية الأولى .. ويتم لهم ما أرادوا بانتقاله إلى ربه فى عام ١٩٢١ ، وبتشتيت رجاله ، وتقسيم بلاده جميعا من جديد .

ولعل مما يذكر لهذا الزعيم أنه عمل بقوة على توحيد المسلمين فى آسيا وإفريقية ، وأنه كان دائماً يردد هذه العبارة التى توضح اتجاهه ، والتى تقول « إن أعز أمانى أن أفرش سجادة صلاة على البحر الأحمر لتؤلف بين المسلمين وتؤاخى بينهم شرقه وغربه ! »



يرجع نسب « محمد أحمد المهدى » إلى هؤلاء العرب الذين زحفوا من الجزيرة العربية ، وظلوا يتدافعون إلى شرق إفريقية حتى وصلوا إلى السودان ، فقد كان الشرق واحدا من الطرق الثلاثة التى حملت لواء العروبة هناك ، بالإضافة إلى الطريق الشمالى ، والطريق الغربى ، وبفضلها جميعا تمّ تعريب السودان الشمالى ، وقامت به ثلاث ممالك عربية هى : الفونج ، والفور ، وتقلى .

ثم كان الحكم التركى الذى دمر النفوس هناك : وبخاصة بعد أن حرق الملك نمر قائد الحملة « إسماعيل كامل بن محمد على » فقد أنزل « محمد الدفتردار » والمحافظون من بعده ضربات مذهلة بالبلاد ، على الرغم من أن البلاد لم تقاوم الفتح مقاومة عنيفة ، ثم كانت أخطاء هـذا الحكم التى يعتبر من أهمها الاستعانة بالأجانب ، وتحطيم اقتصاديات البلاد ، والضغط على حريات الناس .

وفى ظل هذه الظروف الرهيبة ولد « محمد أحمد » فى أغسطس عام ١٨٤٤ ، وذاق أول ما ذاق طعم الفقر فى أسرته ، فقد رأى والده الذى يعمل نجارا فى بناء المراكب والسواقى يدخله بيته بجنوب مدينة « دنقلة » وهو مطرق لأنه لا يجد عملا يساعده على الابتسام فى وجه أولاده ، ورأى رحيله الحزين من

وطنه الصغير إلى الخرطوم ، وهناك يبدى ميلا لتلقى العلم من دون إخوته فيذهب إلى الـكتّاب . ويبدى تفوقا فى تلقى العلوم الدينية المبسطة التى يسمعها ، كما يبدى « تطهرا » فى هذا الوقت المبـكر ، فبينما كان يقبل زملاؤه على طعام أستاذهم الشيخ « محمد الخير » نراه يتعفف عن هذا الطعام ، ويذهب إلى البحر ليصطاد ما يمسك عليه حياته ، وحين يسأل فى ذلك يذكر أن شيخه يتلقى معونة من الحـكومة ، والحـكومة ظالمة لأنها تغتصب المـال من الناس بدون وجه حق .

ثم نراه يميل إلى التصوف ، وينخرط فى سلك الطريقة «السمانية» بروح ملتهب حتى إنه لايقف للصلاة إلا ويرتعد وتتساقط دموع الخشية من عينيه ، وحين يرى منه هذا الشيخ « محمد شريف » يقربه إليه ، ويأذن له فى نشر الطريقة ، وإعطاء العهود .

ثم نرى الظروف الاقتصادية تحتم على اخوته الانتقال إلى جزيرة « أبا » لصلاحية أشجارها لصنع المراكب ، فينتقل معهم إلى هناك حيث يجد جوا أرحب لنشر رسالة الطريقة السمانية ، وحين يرى الشيخ « محمد شريف » إقبال الناس عليه يصطدم به ، فيتحول عنه إلى شيخ آخر هو « الشيخ محمد القرشى » أحد مشايخ الطريقة السمانية كذلك ، وحين يتوفى عام ١٨٨٠ يرثه مشيخته ، ويصبح فى الصف الأول من الدعاة المتصوفين .

ويساعد إقبال الناس عليه على الإسرار بأنه « المهدى المنتظر » ثم الإعلان بهذه الدعوة ، والـكتابة إلى القبائل بشأنها ، ورغم أن كتبه ومنشوراته وقعت فى يد حاكم عام السودان رءوف باشا نراه لا يصدق ، ويخشى أن تـكون دسيسة لـكثرة ما سمع من الثناء عليه ، حتى إن الشيخ محمد شريف حين كلمه فى هذا الشأن ذكر له أن كلامه هذا لابد أن الحقد القديم قد هيجه .

ولـكن حينما تتوافر الأنباء نراه يرسل إليه حملة فى « أبا » بقيادة « محمد بك

أبو السعود » فإذا بالمهدى يمزقها شر ممزق ، ثم نراه يعلن بين أصحابه أنه مأذون بالهجرة إلى جبل « قدير » ، ويصل إليه فى الوقت الذى تكون قد أرسلت إليه حملة إلى « أبا » ، ثم نراه يسحق حملة أخرى بقيادة « راشد بك » ، وأخرى بقيادة « الشلالى باشا » ، وتشجعه عمليات الانتصار هذه إلى التحول إلى الهجوم فيهاجم « الأبيض » وينتصر عليها ، ثم يدخل الإنجليز مصر بعد هذه الفترة ، ويرسلون إليه فلول العرابيين تحت قيادة « هكس باشا » فيبيدهم ، وتعتبر هذه المعركة معلما من معالم انتصار المهدية ، لأن هذه القيادة الحكيمة الماهرة فى إدارة القتال قد فهمها الناس على أنها قوة خارقة تؤيد المهدية ، ومن هنا زاد إقبال الناس عليه ، وأعلنت الثورة باسمه على الحكومة فى أكثر من مكان .

كما نرى أمره ينتشر فى العالم الإسلامى « كنقطة وثوب عربية » على كل تدخل أجنبى فى هذا الوقت المبكر ، ومما يساعده على الانتصار دعوة الإنجليز مصر إلى إخلاء السودان تمهيدا لتدخلها المباشر فيه ، وما يكاد يستولى على الخرطوم حتى يسكره النصر ، فيدعو « الخديوى توفيق » إلى الدخول فى المهدية ويعرض عليه حلفا لمقاتلة المستعمرين ، فقد جاء فى رسالته إليه « . . ونكون الجميع يداً واحدة على إقامة الدين ، وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين ، وقطع دابرهم ، واستئصالهم من عند آخرهم إن لم يتيبوا إلى الله ويسلموا .. وهأنا قادم على جهتك بجنود الله عن قريب إن شاء الله تعالى ، فإن أمر السودان قد انتهى فإن بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية ، والإنابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية » ، كما أرسل الحاج عبد الله الكحال من الزهد عاملا على الشام ، ونصب السيد محمد الغالى أميراً على مراكش ، وكتب بالأمر نفسه إلى حاكم فاس ، والأمير السنوسى ، والسلطان رابح .

ومن هذا نرى أن « محمد أحمد المهدى » كان يرمى إلى تكوين دولة إسلامية كبرى بعيدة عن أى نفوذ أجنبي فى هذا الوقت المبكر ، وأن دعوته لم تكن محلية بحيث تقف عند حدود السودان ، أو تتعداه إلى مصر فقط ، ذلك لأن دعوته كانت بعثا مبكرا « للاتحاد الإسلامى الكبير » وقد توسل إلى هذه الغاية بإعلان مهديته لأن العالم الإسلامى فى هذا الوقت لم يكن ليقبل على دعوة ما لم تكن متصلة بالدين ، وما لم تكن سابحة فى وجدانه ، وقد عاشت المهدية دائما فى وجدان المجتمع الإسلامى ، بعد أن نبتت فى أرض « الشيعة » واستمدت منها مقوماتها ، فإذا كانت قد قامت باسم « الشيعة » دولة الموحدين فى المغرب ، ودولة الفاطميين فى مصر ، فإن دولة المهديين فى السودان هى الدولة الثالثة التى قامت باسم الشيعة .

ومع أن المهدى قد اختلق أشياء كثيرة لتأكيد هذه المهدية فى نفوس العامة أكثرها تشبهه بأفعال الرسول من الهجرة ، وتسمية نسائه بأمهات المؤمنين ، وادعاؤه « بالحضرة » التى كان يقابل فيها النبى ، والملائكة ، ونقل ما دار فى هذه « الحضرات » المتعددة . . مع هذا إلا أنه لم يزد عن رأى العامة فيه فقد اضفوا عليه الكرامات ، وتناقلوا عنه الخوارق كرؤية اسمه منقوشا على بيض الدجاج ، وأوراق الأشجار ، وتدفق الماء فى البئر الجافة من صفيره ، من هنا نرى أن هذا المجتمع الصوفى الغيبى لم تكن لتلم شمله إلا مثل هذه الدعوة ، وأنه كان ذكيا فى استخدامها ، وتطبيقها فى ضوء المتوارث عنها ، وما قرأه عنها فى أقوال الشيخ أحمد بن إدريس ، ومحيى الدين بن العربى ، والشعرانى .

فالمهدى لم يكن ـ كما هو فى ذهن الكثيرين ـ دجالا ، وخارجا عن الإسلام ، وإنما كان زعيما سياسيا عظيما أدرك أن القيادة فى هذه الفترة من التاريخ لن تكون إلا لمثل هذه الدعوة .

وخطورة « محمد أحمد المهدى » لا تقف عند هذا الحد ، وإنما تتعداه إلى التجديد فى النظرة إلى الدين ، وفتح باب الاجتهاد ، وتوجيه الناس إلى القرآن والسنة ، وإبطال العمل بالمذاهب الأربعة ، واستنباط مذهب جديد يتفق والظروف السائدة ، مع مراعاة التبسيط والتقشف فى كل ما يأخذ به ، ومن تجديده فى المعاملات كالنهى عن زواج البالغة بلا ولى ولا مهر ، والحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة أشهر إذا لم يترك لها زوجها ما يعينها على ممارسة الحياة ما لم يكن فى مواطن الجهاد ، كما منع النساء من لبس الذهب ، والفضة ، وشعر العارية ، وخروج حديثات السن منهن بين الناس ، وأبطل الرقص ، والغناء ، وضرب الدلوكة .

ومهما يكن من شىء فقد أحدث هذا الرجل من التغير الجذرى فى السودان ما لم يجرؤ واحد فى تاريخه القديم والحديث على القيام بمثله ، وما أجدره بأن يتصدر كل الذين خدموا العروبة والإسلام والفكر فى إفريقية ، بعد أن عرفنا الظروف المحيطة به وبعد أن ظلم من الكثيرين فى العالم العربى ، وبالأستانة ، فالدعوة إلى المهدية فى هذا الوقت المبكر بقصد تجميع القوى والدفاع عن الوطن لا تقل أثرا عن « الاشتراكية » ، و« الديمقراطية » وكل الدعوات المضيئة فى هذه الفترة الحديثة من تاريخنا .

السلطان رابح فضل الله

من الرجال الذين قـدر لهم مقاومة الاستعمار البريطانى ثم الفرنسى فى القرن التاسع عشر « السلطان رابح فضـل الله » أو نابليون السودان على حد تعبير أحد المؤرخين .

فقد ولد فى حى « سلامة الباشا » بالخرطوم عام ١٨٤٦ منحدرا من قبيلة « الهمق » العظيمة ، التى انتزعت الحـكم من سلاطين الدولة الفونجية بسنار .

وقد انتقل والده « فضل الله » من جبل إدريس إلى الخرطرم سالـكا نفسه فى قوى الجيش المصرى ، وعلى أيدى المصريين من موظفى الحـكومة بالخرطوم تعلم « رابح » مبادىء الـكتابة ، والعلوم الأولية ، كما درس القرآن على الفقيه الهاشمى فى « حلفاية الملوك » ،

وحين اشتد ساعده عزم على المغامرة التى كانت تجرى فى دمائه ، فما كان ليرضى لنفسه بالحياة الرتيبة فى الخرطوم ، ولذا نراه يمد بصره إلى الجنوب حيث يعيش الإنسان مع الخطر جنبا إلى جنب ، وما كاد يصل إلى بحر الغزال حتى استقر رأيه على العمـل فى (الـكبانيات)[1] ، وظل يعمل ، ويخاطر حتى وصل إلى « وكيل كبانية » .

فلما تدخل « الخـديوى إسماعيل » لمنع الرق ، وعين « بيكر » لتشتيت أمر القائمين على هذه الـكبانيات ، استطاع « الزبير باشا » هناك جمع فلول الجلابة ،

(١) كلمة إنجليزية دخلت اللهجة السودانية لتدل على الجماعات التى كانت تستخدم فى صيد الرقيق وشئون التجار .

وكون منهم جيشا لايقل فى التنظيم عن أى جيش آخر فى هذه الفترة الزمنية ، وكان من أبرز المنضمين إليه « رابح » الذى أصبح ساعده ، وسيفه ، وقد توثقت العلاقة بينهما حتى ظن بعض المؤرخين أنه كان رقيقا للزبير ، ولكن انتماءه إلى قبيلة « الهمق » التى تولى بعض رجالها الوزارة فى مملكة سنار ينفى هـذا ، فضلا عن أن الزبير نفسه نفى تهمة الرق هـذه عن رابح فى حديث له مع الكاتب الألمانى « أوبنهايم » .

وقد وصفه المؤرخ السودانى محمد عبد الرحيم بقوله إنه كان « طويل القامة ، كبير الهامة ، ضخم الكراديس ، واسع الجبهة ، معتدل الأنف ، خفيف اللحية ، قصير الشاربين ، أخضر اللون[1] ، جمع الله له مابين وقار الكهول ، ورشاقة الشبان ، وأصيب فى حربه لقبائل « البنـدا » بنشاب فى أصبعه الوسطى من يده اليمنى جعل الإصبع ناشفا لايتحرك ، وكان رابح يكرم العلماء ، ويحب الفضلاء ، ويعطى المال عطاء من لا يخاف الفقر ! » .

وقد ظل رابح مرتبطا بالزبير ، مخلصا له فى إقامته بالسودان ، وكان سيفه المنتصر فى فتح بحر الغزال ، ودارفور ، فلما وشى الإنجليز بالزبير عند الخديوى ، استدعى إلى مصر فى ظل الدعاية السيئة التى نظمتها ضده الصحف الأوروبية ، نراه يخلص كل الإخلاص لابن زعيمه المسمى « سليمان » الذى ظل شاهرا سيفه فى وجه السيطرة الأجنبية بالسودان ، ولكن حينما عزم « سليمان » على إغماد سيفه ، واستكان لوعود الضابط « جسى » بالعفو عنه ، انشق عليه ، وغاضبه ، وذكره بوالده المعتقل فى مصر ، ثم لوى زمام فرسـه إلى أرض جديدة ، وشهدت أرض السودان منظرين غريبين كان أولهما : منظر سليمان مضرجا بدمه ، وبوعود كاذبة من الإنجليز عن سلامته ، أما الثانى فكان هذا الغبار المتصاعد من ألف فارس يشقون

(١) أخضر فى اللهجة السودانية معناها أسود .

طريقهم وراء « رابح » إلى غرب السودان فى ثقة ، وفى أمل .

وهكذا ساروا يهزون الأرض من تحتهم ، ويغطون الأفق بأناشيدهم ، وهم فى كل خطوة يصنعون التاريخ ، فقد كان وجودهم بهذا الحماس فى هذا الوقت بالذات دليلا على أن قلب القارة مازال ينبض ، بل مازال يستعصى على الغزاة .

وقد تدفقت الدماء حارة فى قلب « رابح » وهو يتوغل فى غرب السودان ، وسرعان ما داعبه خيال مملكة يبنيها شبرا شبرا بالرمح ، والعرق ، والدموع ، وتوهج هـذا الخيال فى نفسه ، فلم يشعر إلا وهو ينتقل من الخيال إلى الحقيقة . . إلا وهو ينتصر على السلطنات الصغيرة المتشاحنة ثم يدمجها فى رقعة كبيرة تسمى سلطنة رابح .

وقد بدأ « ببحر ميمون » حيث أغار على قبيلة « قـلا » وأخضعها ، ثم هزم السلطان « هاشم أبو حقيقة » الذى كان يسيطر على قسم من « الرنقا » ، ثم توجه إلى « كتى » وأخضع سلطانها « السنوسى أبكر » وتزوج إحدى بناته ، ثم أخضع السلطان « كروندس » أحـد سلاطين قبائل « البنـدة » فى « أنقبو » بالكنغو الفرنسية ، ثم السلطان « دنبقو » سلطان قبيلة « منجا » ثم السلطان « جلبو » سلطان قبيلة « سارا » ، ثم السلطان « اندمانى » سلطان « رندى » ثم السلطان « كادى » سلطان « باقرما » ، ثم السلطان « جقـو » سلطان « بحر أردة » ، ثم السلطان « أم بنداى » سلطان أحد أقسام « سـارا » ، ثم السلطان « بنداس » سلطان قبيلة « كريش » .

كما غزا أيضا السلاطين « وقى ، وسمراى ، وعبد الرحمن قورنه ، ويوسف » ، وبعد أن اجتاح قبائل « الباقرما » الشديدة المراس توجه إلى مملكة « برنو » ، والبرنو تعتبر أقصى مديريات شمال نيجيريا من جهـة الشمال الشرقى ، وجنوبه بحيرة « تشاد » .

وسكان هـذه المملكة خليط من « البرنو » و « الكانجو » و « العرب » و « الفلاتة » ، ويقال إن البرنو من عرب جهينة ، وقد نزح أهلها من مصر مدة حكم الفاطميين ، وجعلوا عاصمتهم فى « قزرقمو » ، وقد كانت بين هذه المملكة وبين مصر صلات ودية . فقد كان لأبنائها رواق بالأزهر ، حتى إنه فى أوائل القرن التاسع عشر تولى الحكم فيها رجل أزهرى من « الكانمو » يسمى الشيخ « محمد الكانمى » .

كما يقال أيضا إن « البرنو » يرجع أصلهم إلى « حمير » التى هاجر بعض منها إلى « نيجيريا » فى أوائل الإسلام .

ومهما يكن من شىء فقد دخل رابح معهم فى حروب مدمرة انتهت بانتصاره وما كاد يدخل هذه المملكة حتى أقام احتفالا عظيما أطلقت فيه المدافع ، حتى إن الأهالى هربوا إلى الغابات من الخوف ولم يعودوا إلا حينما سمعوا الاحتفال بالانتصار يختم بالقرآن الكريم .

ومن أعظم أعمال « رابح » أنه عمل على نشر الإسلام فى هذه البلاد ، وأقام كثيرا من المساجد ، ومن أروع تلك المساجد التى بناها مسجده فى بلدة « دكو » ، ومن أعماله الطيبة كذلك أنه ألف مجلسا شرعيا برياسة الفقيه « أحمد كبير » ، وشجع على الأخذ بمذهب الإمام مالك ، وأفتى بأن من قتل عدوا فله سلبه ماعدا العشر فهو لبيت المال .

وفى فترة الانتصارات هذه لم يكن لرابح لقب ينادى به ، فلما كون مجلسا للنظر فى التنظيمات الجديدة كان هذا الشىء أول ماشغلهم فلما اجتمعوا قال فريق نلبسه تاجا من الذهب ونسميه « سلطان سلاطين العرب » وقال فريق « لايليق بمسلم أن يلبس تاجا من الذهب ، ولا أن يتسمى سلطان السلاطين ، أو شاهنشاه ، وإنما الأجدر به أن يسمى « سلطان برنو وملحقاتها » ويلبس الجبة المرقعة : وقد أخذ فعلا

بهذا الرأى فلبس الجبة المرقعة ، وسمى نفسه سلطان برنو وملحقاتها .

وقد ذاع خبر ملكه فى البلدان المجاورة ، حتى إنه حين قامت المهدية فى السودان حاول « محمد أحمد المهدى » استمالته ، فدعاه إلى معاونته باسم الدين ولكنه لم يفلح فقد كان مشغولا عنه بتكوين مملكة ترضى طموحه ، وقد كرر أيضا نفس المحاولة الخليفة « عبد الله التعايشى » ، فبعث إليه برسولين هما أحمد الجابرى ، وإدريس محمد فذهبا إليه يحملان راتبا وراية وكتابا ، ويدعوانه إلى الانضمام إلى الخليفة « بأم درمان » ومبايعته على الجهاد .

ولما كان رابح قد وطد أركان ملكه فإنا نراه قد قبل الدعوة وسار بجيش قوى لمقابلة الخليفة « التعايشى » ولكنه حين وصل إلى بلدة « ربو » بالكنغو الفرنسية قابل هناك « الفكى نور الحسى » و « الشريف أم دارفو البرناوى » فسألهما عن الحال فى أم درمان فصورا له مظالم الخليفة وتحكم أسرته فى الوظائف وروح التذمر التى سادت السودان كله من حكمه وذكرا له فيما ذكرا أن أول تكريم سيقابل به عند وصوله هو تجريده من ماله ، وإبعاده عن جيشه ، فأخذ بنصيحتهما وقفل راجعا إلى الأرض التى فتحها بدمه ودار فى نفسه سؤال « أترى الحنين إلى الوطن والرغبة فى رؤية كل شىء فى السودان هو الذى كان سيدفع بى إلى هذه المخاطرة ؟ » .

وفى هذا الوقت كانت فرنسا تبعث برسلها لعقد المعاهدات مع المشايخ والسلاطين فى هذه المنطقة وقد توصلت إلى أغراضها بالكلام المنمق والهدايا التافهة والمدافع التى أهدتها البعثة ، وكانت أشهر هذه الهدايا هى تلك المجموعة من البنادق والمسدسات الفرنسية إلى السلطان « محمد أبكر السنوسى » وقد بلغ الوعى بالشاعر الشعبى « البخيت الجعلى » حدا جعله يحذر السلطان من هذه الهدية بقوله :

« لا تأمن ناسا خاينين قباح :
أولادك لابسين فشيك شايلين سلاح

آدم أبو أم كلثوم[1] ولدت نجاح
مضمون يغدى الطير عند الصباح ! » .

ثم قال :
« لا تأمن ناسا خاينين كفر
من ربنا الوهاب جاك النصر .
آدم أبو أم كلثوم ولدت قدر مضمون
يغدى الطير عند الفجر ! » .

وعلى كل فقد بدأت الحرب صريحة بين رجاله والفرنسيين حين اشتبه رجاله في فرنسى حضر إلى بلدة « كمرى » التابعة « لفورت لامى » فلما استجوبه رابح قال الفرنسى : إنه تاجر حضر من بلاده ليتعرف على رغبات السكان ، ثم يعود بما يحبون وقد أوجس رابح منه خيفة ثم اعتقله ، وقام للبحث عن الفرنسيين فوجد أن هناك قوة بوليسية مجهزة بالحديث من المدافع ، ومتحصنة بجبل « كنو » الواقع فى شمال بحر « شارى » .

ومما زاد الأمر سوءا أن السلطان « عبد الرحمن قورنه » سلطان « باقرما » قد انضم صراحة إلى الفرنسيين ، وأن القوة الفرنسية قد سلحت رجاله ، وهكذا لم يكن بد من الحرب ، فخرج إليهم « رابح » فى موقعهم الحصين ، ودارت المعركة كأعنف ما تكون المعارك ، وتكشف غبارها عن قتل جميع الفرنسيين ماعدا خمسة منهم لاقوا حتفهم كذلك ، فقد عرض عليهم « رابح » الإسلام فلما أبو أعدمهم وهكذا انحسرت المعركة عن قتل جميع الفرنسيين ، وتشتيت حلفائهم « الباقرما » وقتل الكثير منهم .

---

(١) آدم أبو أم كلثوم هو أكبر أبناء السلطان وقائد جيشه .

وقد ذكرت جريدة الأهرام المصرية هذه الموقعة فى عددها الصادر فى ١٠ من نوفمبر عام ١٨٩٩ فى مقال بعنوان « السلطان رابح » جاء فيه « جاءتنا الأنباء البرقية منذ أيام بسطو رابح سلطان برنو وباقرما على بعثة فرنسوية ، وتنكيله بها ، وقد قرأنا فى جريدة الطان الواردة أمس فصلا جديرا بالمطالعة لما يستشف خلاله من رأى الوزارة الفرنساوية فى أمر هذا الرجل وملخصه : أن رابحا قد استلفت إليه نظر العالم المتمدين لأسره المسيو بيهاجل ، وقتله بريتوناى ، وبرون ، ومرتين من رجال البعثة المذكورة . . إن من الناس فى فرنسا من لايشورون بالحملة على رابح ومعاقبته حالا ، ولكنها ترى أن هذا التردد لا ينجم عنه إلا استمرار العبث والفساد فى تلك الأملاك التى اعترفت بها ألمانيا لفرنسا فى سنة ١٨٩٤ وانكلترا فى هذه السنة . »

على أنه بعد ستين يوما من هذا النصر حضر الفرنسيون مرة ثانيا مع حلفائهم « الباقرما » ، وكانت تعززهم باخرة مدرعة ، ومسلحة بالمدافع ، وسرعان ماصوبت مدافعها على حصن رابح فأخذ فى الانهيار ، ولكن جيش رابح خرج من الحصن والتحم مع قوة الفرنسيين البرية ، وأبادها ، وشتت مرة ثانية حلفاءهم من الباقرما ، وحين رأت القوة البحرية هذا الانتصار تراجعت بعد أن تركت رسالة علقتها على قصبة وركزتها فى قلب أحد قتلاها ، وكان محتوى هذه الرسالة الموجهة إلى رابح « ارجع إلى عاصمتك فإنا قادمون إليك ! »

وبعد سبعة شهور عاد الفرنسيون للمرة الثالثة بجيش مجهز بأحدث المعدات الحربية ، ومجهز أيضا بالجنود السنغاليين الذين دفعتهم فرنسا إلى الحرب معها حتى يدركوا أسرار هذا الرجل الإفريقى مثلهم . . وقد وصلوا جميعا فى حماية باخرة مدرعة إلى بلدة « كسرى » ، وقد أرسل إليهم « رابح » ولده « فضل الله » فلم يستطع الثبات أمام معداتهم الحديثة ، فاستنجد بوالده فأنجده بثلاث آلاف مقاتل

فقويت روحة المعنوية ، وهجم على الفرنسيين حتى هزمهم ، وأرغمهم على التراجع عن مواقعهم .

وقد اغتر جيش « فضل الله » بهذا النصر فشغل بالغنائم فى الوقت الذى عاد إليه الفرنسيون على غرة ، وكان أن كسر جيش « رابح » فى موقعة « كسرى » .

وكان لابد من عودة « رابح » إلى الميدان ، وقد عاد فعلا إلى قلب المعركة ، وحفر لنفسه خندقا ليستطيع اتقاء هذه المخترعات الحديثة ، ولكن الجنرال «لامى» تمكن من تطويقه فى هـذا الخندق ، واستمرت الحرب بين الفريقين بوحشية من جانب الفرنسيين ، وبفدائية من جانب الرابحيين ، وفى حومة المعركة أصدر الجنرال «لامى» أمرا بتحويل كل القوى إلى الخندق الذى يوجد به «رابح» فقد أدركوا أنه هو القوه الحقيقية فى المعركة ، وما كاد صوت « لامى » يصل إلى جنوده حتى تحولت كل المدافع ، والبنادق ، إلى شخص واحد هو « رابح » ، وفى وسط هذه الدوامة تمكن « رابح » من الدفاع عن نفسه وفى جسمه رصاصة ! واثنتان ! وثلاث ، وأربع ، وصدر أمر آخر فتحول إليه مدفع فسقط .. لا كجندى ينطرح على الأرض ولكن كقائد يخيل إلى من يراه وهو جاث ، أنه مازال يدافع ! مازال يأخذ « وضعا » حربيا يصدر منه الأوامر إلى جنوده .

ومن هنا لم يصدق جنوده فى أول الأمر أنه قتل ، ولما كان لابد من إدراك الحقيقة دارت المعركة مرة ثانية حول الجسد الملقى ، فقد أصر رجاله على العودة به ، وأصرت المدافع الفرنسية على أن يبقى فى مكانه ، حتى أن عدد جنوده الذين قتلوا من أجل العودة به فاق عدد القتلى فى المعركة ، ولم تنته هذه الهجمات الانتحارية حول جسد « رابح » إلا حينما قتلوا الجنرال لامى نفسه .

ويشاء القدر أن يكون أول اجتماع للقائدين بعد اجتماعهما فى ميدان القتال هو التقاؤهما كفكرتين فى ميدان واحد بمدينة « فورت لامى » عاصمه « ودای »

الواقعة يمين بحر « شارى » ، أما « رابح » فقد شيد ضريحه على هيئة مربع في كل زاوية من زواياه مدفع : وأما الجنرال « لامى » فيقف على قاعدة ، تمثال ضخمة .

ولكنك لا تستطيع الآن في « فورت لامى » أن تحس بشيء هناك سوى « رابح » ، والقصص الشعبي الذي يدور حول بطولته وأمجاده .

فإذا خرجت إلى القرى والغابات ، وجدت تلك الآلة المسماة عندهم السكيته Kaita في أيدى الفنانين الشعبيين ، وسمعتهم ينشدون عليها دور « رابح » البطولى فإذا بالناس يتجمعون . وإذا برابح يعود من جديد قصة كفاح ، وصيحة بعث تهز كل إفريقية .

السلطان على دينار

قد قامت فى السودان بعد دخول الإسلام فيه ثلاث ممالك هى « الفونج ، وتقلى، والفور » ثم كان الفتح المصرى الأول الذى ضم هذه الممالك وزاد عليها ، وجعلها جميعا فى وحدة واحدة لم تتحقق من قبل .

وإلى مملكة « الفور » هذه — التى تمثل الآن مديرية دارفور — ينتمى السلطان على دينار الذى عمل على نشر الإسلام والعروبة فى هذه المنطقة من السودان ، بعد أن تأكد كل منهما على يد أحمد المعقور ، الذى قدم مع موجة عربية كبيرة من تونس هى موجة التنجور Tunjor الذين اضطروا إلى التغلغل فى إفريقية هربا من بنى هلال الذين غطوا مساحة كبيرة بحروبهم فى الشمال الإفريقى .

ثم تأكد الإسلام والعروبة كذلك على يد ابنه « سليمان صولون » الذى ورث جده الإفريقى ، ذلك لأن « أحمد المعقور » كان قد تزوج ابنة سلطان البلاد .

على أن العروبة والإسلام قد اعتزا أعظم اعتزاز على يد السلطان « على دينار » الذى نادى به الجميع سلطانا بعد مقتل السلطان « أبو الخيرات » ، ثم إن البلاد ما كادت تزدهر على يديه وهى التى وصفها فى كتاب له بأنها كانت « خرابا » فى صغره ، حتى أظلت البلاد المهدية ، وأخذ الناس يتدافعون لمبايعة الإمام « محمد أحمد المهدى » فى كل مكان يتوجه إليه ، وقد سحرت هذه الدعوة الجديدة الشعب فى دارفور ، فاجتمعوا وطلبوا من السلطان أن يتوجه لمقابلة « المهدى » ومبايعته ، على أن كبرياءه كانت قد وصلت إلى رجال المهدية قبل وصوله ، فأهملوه ، وادعوا عليه بأنه يشرب الخمر ، ثم قيدوه وألقوه فى السجن .

وقد ظل فى هذا السجن حتى انتهى عصر المهدية ، وأصبح الإنجليز أصحاب

الكلمة العليا فى البلاد ، وكان أن فكوا وثاقه ، وطلبوا منه أن يسافر إلى مملكته وأن يرفع علمىْ الحكم الثنائى ، ويدفع جزية سنوية ، وفى الوقت نفسه يقبل الخبراء الأجانب والمستشارين فى مملكته .

وقد قبل هذا فى أول الأمر ، ولكنه ما كاد يتولى شئون الحكم فى بلاده حتى حرم الإقامة بها على الأجانب ، كما كان يعتذر دائما عن مقابلة مندوبى الحكومة ، وقد ازداد خوف الحكومة منه حينما رأته يدخل فى مكاتبات مع فرنسا من أجل حدود مملكته .

وكان أن لجأت إلى تقويض حكمه داخليا فمنعت عنه إرسال الأسلحة ، وأيدت ثورة « موسى مادبو » زعيم قبيلة الرزيقات عليه ، ولم توافق على إرجاع الفارين من قبيلة « الزيادية » من بلاده إلى كردفان ، ولم توقف قبيلة « الكبابيش » الذين تعودوا خرق حدود مملكته ، وفى الوقت نفسه لم تسمح لمندوبه بالسفر إلى الحجاز لإحضار صفقة من الأسلحة هناك ، ولم تقم بعمل حاسم فى رد الفرنسيين عن حدوده !

وقد دفع كل هذا السلطان إلى أن يقف مواقف عدائية صريحة من الحكم القائم فى السودان ، وإلى أن يحقق أملا أثير فى نفسه وهو تكوين دولة إسلامية فى إفريقية ، وكان أن انحاز إلى تركيا فى حربها مع الإنجليز ، وكتب إلى السلطان فى الأستانة يقول إن الأجانب قد أحاطوا بالمسلمين « من يميننا وشمالنا وورائنا وأمامنا ، وحازوا ديار المسلمين كلها ، وممالك البعض سلطانها مقتول ، والبعض سلطانها مأسور ، والبعض سلطانها مقهور ، يلعبون بأيديهم كالعصفور ماعدا بلادنا دارفور ، قد حفظها الله من ظلمات الكفار ، والداعى أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين اللذين حرسهما الله ، ومنحكم بخدمتهما ، ولم نر حيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذى فرضه الله علينا من حج بيته الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام » .

أجبرنا على مواصلة دولة الإنجليز ، وصرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم ، وتارة في حفظ إيماننا ، وإسلامنا في بلادنا » .

وهكذا نراه ينضم إلى المعسكر التركى مجاهرا ، ويكتب إليه سافرا ، مما يجعل «أنور باشا» يكتب إليه رسالة من تركيا فى ٣ من نوفمبر عام ١٩١٥ يذكره فيها بالاعتداء على بلد الخلافة من روسيا ، وانجلترا ، وفرنسا ، ويعلن له أن الخليفة قد أعلن «الجهاد المقدس» ضد هؤلاء المعتدين ، وأن المشيخة الإسلامية قد أفتت بأن الجهاد قد أصبح الآن فرضا على جميع المسلمين فى كل بلاد العالم ، كما يخبره بأنه سيرسل إليه مندوبا من تركيا هو « جعفر بك » ، وأنه سيرسل حملة لإنقاذ مصر ، وأن النصر سيكون حليفه وحليف أصدقائه الألمان .

وما كادت تصل إليه هذه الرسالة حتى يرد عليه بأنه قد قطع العلاقات بينه وبين الدول التى اعتدت على تركيا ، وأنه قد جاهرهم بالعداوة ، وأعلنهم بالحرب واستعد لمكافة مايترتب على عمله هذا .

وقد كان السلطان عازما على السير شرقا لوضع السودان جميعه تحت سيطرته ، وتخليصه من الحكم القائم ، ولكن الإنجليز ما يكادون يحسون بهذا حتى يرسلوا إليه حملة بقيادة « كلى باشا » ويثيرون عليه رجال الدين فى الخرطوم ، ويطلبون منهم الكتابة إليه فى هذا الشأن، فيسارعون بطلب دخوله فى طاعة الحكومة ولكنه كان مصمما على تسوية جميع خلافاته مع الإنجليز ، ولكن حماسه هذا لم يستطع الوقوف أمام الأسلحة الحديثة التى أسقطت رجاله من حوله فى موقعة « برنجية » عام ١٩١٦ ، ثم أطلقت وراءه « هدلستون بك » مطاردا حتى لاقى ربه برصاصة فى ٦ من نوفمبر عام ١٩١٦ ، وكان أن أعلن ضم دارفور إلى السودان بعد ثمانية عشر عاما من فتح كتشنر للسودان !

ورغم أن السلطان أديب وشاعر كما وضح فى كتابه « ديوان المديح فى مدح النبى المليح » إلا أنه يعتبر الرجل القوى الذى وقف فى إصرار إلى جانب تركيا ، رغم أن بلاده كانت « جزيرة صغيرة » محاطة بالإنجليز والفرنسيين ، متأثرا فى كل خطوة خطاها بالدفاع عن الإسلام فى إفريقية ضد كل الدخلاء .

عثمان دون فوديو

لقد كثر الحديث عن « نيجيريا » بعد أن استقلت في عام ١٩٦٠ ، وسقطت الحواجز من حولها ، بحيث أمكن رؤيتها كجوهرة سوداء كبيرة تتألق بين داهومي والكاميرون ، والمحيط الأطلسي ، بعد أن نجح الإنجليز في خنق الضوء بها ، واستنزاف مواردها من الكاكاو ، وزيت النخيل ، والذرة ، والفول السوداني ، والقطن ، والقصدير ، والمطاط ، والأخشاب ، والجلود .

وهكذا جمد الإنجليز الحياة هناك ، فلم يتقدموا بالبلاد خطوة واحدة ــ وبخاصة في الشمال ــ منذ أن كان هذا الشمال دولة « عثمان دون فوديو » ومع أن هذا الشمال واحد من التكوينات الثلاثة لنيجيريا وهي « الشمال ، والشرق ، والغرب » إلا أنه يبلغ وحده ثلثي مساحة نيجيريا التي تبلغ رقعتها ٤٠٧٠٠ ميل مربع تقريبا ، والذي يضم وحده كذلك سبعة عشر مليونا ونصف مليون من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٢ مليونا ، والذي يقف على قمته التنظيمية الحاج « أبو بكر ابالوا[1] » الذي يحلو للبعض أن يطلقوا عليه اسم الداعية الإسلامي العظيم « عثمان دون فوديو » .

وتبدأ قصة هذا الرجل بقبيلة « تورنكاوا Toronkawa » التي كانت تعيش آمنة في سلطنة « مالي » والتي رغبت في الهجرة عن هذه السلطنة أملا في خلق سلطنة أخرى في الامتداد الكبير حيث كانت إفريقية في هذه الفترة المبكرة بلا حدود ، ولا أسوار ، وقد ظلت تتدافع تحت وقع الذكريات حتى استقرت في إمارة «جوبير» إحدى إمارات مملكة « الحوصة » .

---

(١) اسمه في الحقيقة [أبو بكر أبو عليوه] ولكن الإنجليز قدموه من خلال الإنجليزية بهذه الطريقة .

وهناك فى قرية « مارتا » ولد « عثمان » فى عام ١٧٤٤ ، واندلحت الحياة من حوله ، فحدق فى انبهار ، وابتسم فى أمل ، وأنصت فى عمق إلى قصص قبائل « الحوصة » المليئة بالسحر ، وعبادة ظواهر الطبيعة ، على أن أحب هذه القصص إلى نفسه ما كانت تحمل إليه رائحة « مملكة مالى » التى كان يتصورها جنة جميلة تعشش بين بلاد برنو شرقا ، والمحيط الأطلسى غربا ، وجبال البربر شمالا ، فقد كانت تحمل إليه دائما تكبير ملوك « الماندنجو » فى « كانجابا » وهم يقبلون على الإسلام ، وعبير مدينة تمبكتو التى تزدحم بالعلماء ، وأخيرا مهرجان الحج الكبير الذى كان يسير به السلطان « منسى موسى » إلى مكة فيتردد اسم الله على كل شىء هناك ، وتلتقى الأرض والسماء وما بينهما على تلك « الكلمة » الكبيرة !

وقد ساعده على هذا أن أسرته كانت على صلة وثيقة بالدين ، والاشتغال بقضاياه ، بالإضافة إلى استعداده النفسى للقيام بهذه المهمة ، فقد استوعب كل ماعند قومه من أضواء الدين ، ولما لم يجد شيئا جديدا يضيفه إلى نفسه فكر فى القيام ببعثة علمية إلى بلاد « الطوارق » ليضيف إلى ما اكتسبه جديدا ، وهناك فى بلدة « أجاديس » قابل التصوف وجها لوجه ، فقد وجد الناس يأخذون بطريقة «الشيخ عبد القادر الجيلانى » وارتاحت نفسه إلى هذه الطريقة ، وأحس أنها تأخذه من نفسه بعيدا عن الحياة إلى عالم ممتلئ بالهدوء ، والاطمئنان ، والصفاء .

وما كان أشد حاجته إلى هذه الشحنة من « الصفاء النفسى » ففيها وجد نفسه يتحول إلى شىء من النور ، وبعد أن سكر به ، أخذ يبحث عن « سر النور » فى نفسه ، وفى العالم ، محاولا الحلول فيه ، والذوبان فى ضميره .

ولكن الحياة كانت أقوى منه حينما جذبته إليها . وألحت عليه فى أن رسالته يجب أن ترتبط بالناس من حوله ، وأن الدعوة إلى النور أهم من الذوبان فيه ، والاحتراق به .

ومن هنا نراه يعود إلى الناس بعد عودته من بلاد الطوارق فى الشمال ، فيختلط بهم ، ويقدم إليهم ماهم فى حاجة إليه من العلم ، ويذكرهم بأن عليهم أن يوصلوا هذا العلم إلى غيرهم .

ثم تدفع به الحياة حاجا إلى مكة ، فلا يضيع وقته فى تعذيب النفس ، وتخويفها والانسلاخ عن واقع الحياة الذى يعيشه ، وإنما نراه يخرج ليقابل « الوهابيين » ويلمس بقلبه جوهر دعوتهم التى تنادى بلمس أعماق الدين بعيدا عن الحلى والزخارف الخارجية . وحينما يستوعب هذا المذهب الذى دعا إليه « محمد بن عبد الوهاب » يخف للعودة إلى بلاده ، وقد أضاف إلى نفسه وظيفة المصلح الاجتماعى ، فنراه يحارب الخرافات والبدع ، وينكر تعظيم قبور الأولياء ، ويقدم للناس « الدين من الداخل » بعيدا عن تهاويل الصوفية ، وتزاويق العلماء ، وزيادات الجهلة .

على أننا نراه يتحول بدعوته تماما إلى الوثنيين من حوله ، فقد كان شعب الحوصة من حوله بإماراته السبع : « كانو ، رانو ، زاريا ، دورا ، جوبير ، كتسينا ، زامفيرا » يدين بالوثنية ، وينطوى على نفسه ، وينفر من كل دعوة جديدة تحاول تغيير مجرى حياته ، ولكن « عثمان » بسلوكه المثالى أخذ يفتن الناس بأحاديثه حين يتكلم عن الإسلام ، ويجذبهم إليه حين يستغرق فى الصلاة ، ويدفع بالدمع إلى أعينهم حين يتلو آيات من القرآن الكريم ، وقد ظل الناس يتحببون إليه ويلتفون من حوله حتى وصل خبره إلى أمير « جوبير » الذى سرعان مادعاه إلى زيارته ، وقبل منه دعوته ، وطلب منه الإقامة عنده ليقوم على تعليم أبنائه ، وتسلل « عثمان » إلى قلب الكثيرين من حول السلطان ، وبموت السلطان تولى الحكم ابنه « يونفا » وقد سر « عثمان » وحسب أن تلميذه سيعمل بتعاليمه ، ولكن هذا التلميذ خيب أمله حين أصر على التمسك ببعض العادات الوثنية ، وكان لابد من فراق بينهما ، عاد بسببه « عثمان » إلى مسقط رأسه مواصلا رسالته .

ولـكن « يانقا » سرعان ما أقلقه هذا النشاط ، وبخاصة حينما رأى أن أكثر جنوده قد أصبحوا من مريدى الشيخ ، ولذا نراه يضطهد أنصاره ، ويطلب منه الخروج من بلاده ، ويتشبث « الشيخ عثمان » بوطنه ، وبالبقاء مع الناس الذين أحبهم ، وأحس بالنور وهو يدب إلى نفوسهم ثم يغمرها ، ولـكن السلطان يشتد فى طلبه ، ويعزم على الوقيعة به ، وتصل إليه هذه الأنباء ، فيقوم فى وسط مريديه قائلا : إنه لابد لهم من « هجرة » وأن هذه الهجرة ستـكون إلى إمارة « زامفيرا » ويجتمع الناس من حول هذا الداعية ، ويتـكاثرون ، فيستشيط « يانقا » غضبا ويتحالف مع الطوارق ، ثم يسير إليه محاربا ، ولـكن الدائرة تدور عليه ، وعلى حلفائه عام ١٨٠٤ .

وتؤثر فيه هذه الهزيمة فنراه يجند إمارات « الحوصة » ضده ، وضد قبيلة الشيخ ومريديه من « الفلاته » ، ومع أن الشيخ عثمان أسرع وطلب منهم الدخول فى الإسلام ، ونهاهم عن الدخول معه فى حرب ، إلا أنهم رأوا فى هذه الدعوة الجديدة خطرا عليهم ، وصمموا على مقاتلته ، ودخلوا معه فى معارك دامية ، ولـكنها أسفرت عن نصره ، وفشلهم ، وكانت فرصة سانحة له لإقامة دولة كبيرة فى هذه المنطقة ، وقد توج هذا الانتصار بقتل أمير « جوبير » فى عام ١٨٠٨ ، وفى الوقت الذى سقط فيه ارتفعت أكثر من مئذنة ، وهرول الناس للدخول فى الاسلام .

ثم نرى بلاده تدخل فى معارك مع أمير « برنو » الحاج محمد الأمين الكانمى ولـكنها لا تستطع إخضاعها ، وقد رأى أخيرا عدم التعرض لهذه الامارة . وبخاصة حين أرسل « الحاج محمد الأمين الـكانمى » رسالة يذكر فيها أنه معجب بالجهاد فى سبيل نشر الاسلام . ولـكن التوسع يجب ألا يمتد إلى بلاد المسلمين .

ويذكر بانه قرأ كتاب الشيخ عثمان المسمى « إتقان الميسور » .

وعلى كل فنحن نراه يعتزل الحـكم بعد سقوط « جوبير » عام ١٨٠٨ . ويسلم

القسم الشرقى من دولته ـ وعاصمته سكوتو ـ إلى ولده «السلطان بل» . أما القسم الغربى الذى عاصمته«جواندو» فقد سلمه إلىأخيه «عبد الله» الذىخاض معه حروبه وكان فيها ذراعه ، وسيفه .

ورغم أنه اعتكف للصلاة ، والتهجد إلا أنه كان من وراء الأحداث دائما بمشورته . ورأيه الصائب . حتى لاقى ربه عام ١٨١٧ . بعد أن ترك وراءه ما ينيف على مائة كتاب منها كتاب (عمدة البيان) ، وكتاب (السلاسل الذهبية) ، وكتاب (علوم المعاملة) ، وكتاب (كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين) وكتاب (إحياء السنة ، وإخماد البدعة) وهكذا نراه قد خاض معركة مريره من أجل الاسلام . معركة نرى ثمارها الآن فى نيجيريا المتحررة . وفى المسلمين الذين يصرفون الأمور فيها وبخاصة فى القسم الشمالى ، وفى الانعطاف نحو الوطن العربى ، وفى مقاطعة إسرائيل .

فليس كل هذا إلا « نقطة ضوء » من المصباح الكبير الذى رفعه فى شمال نيجيريا «عثمان دون فوديو» ، وعلقه فىصدر خمسة عشر مليونا من المسلمين هناك .

الحاج عمر تال

تتجمع النقاط الضوئية فى غرب القارة الآن ، بفضل حركات التحرر القوية التى أعلنها القادة المعاصرون الذين يقفون الآن بعزة على مداخلها ، وفى يد كل منهم رمح طويل هو رمز القارة الحاد الذى أصبح لن يستطيع مستعمر بعد اليوم أن يدخل القارة إلا من خلال هذا الرمح الشامخ العنيد .

ولكن الذى يمد بصره الآن إلى المنطقة الغربية من القارة — حيث الحرية تغمر الوجوه الطيبة ، والطبيعة القاسية ، والمناجم المرزوقة — يحس بشعور داخلى يدفعه إلى معرفة الماضى الذى مرت به هذه البلاد ، ويلتمس أرضا قديمة من المعرفة يستطيع أن يقف عليها « لحظة التأمل » التى تؤرقه ، وتطالبه أن يصل الحاضر بالماضى ، ليحس بالقارة إحساساً علميا ، مهما كان هذا الإحساس .

وقد يسأل الإنسان نفسه ماذا وراء هذه البلاد الشاسعة التى احتلتها فرنسا فى السودان الغربى ؟ وهل تسلمتها هكذا غنيمة باردة ؟ أم كان هناك إصرار ، ومقاومة من أجل الأرض الطيبة ، ثم أخيرا ضعف أمام الأسلحة الحديثة التى كانت لها الكلمة الأخيرة دائما فى المعركة .

والذى نستطيع أن نؤكده أن أرض هذه المنطقة التى نتكلم عنها الآن قد صبغت بالدماء ، وغرست بالشهداء ، وشهدت أهلها وهم يعرضون صدورهم دفاعاً عنها ،حتى ليمكن القول بأنهم جعلوا من أنفسهم طبقة سميكة تحمى الأرض عن الأحذية الفرنسية القاسية ، ومن هنا يمكن القول بأنهم لم يحتلوا الوطن ، وإنما احتلوا أنهار دماء ، ورفات أجساد ، وصمود أرواح ، وأنهم متى زالوا — وقد زالوا — ستورق

الأرض ، وتتدفق بالخيرات ، تحت حراسة هذه الأرواح التي حصدت هناك بقسوة .

فقد عاشت على أرض هذه المنطقة إمبراطورية « التوكولير » آخر الإمبراطوريات الكبرى في السودان الغربي ، تلك الإمبراطورية التي احتفظت بمقومات الإمبراطوريات الأخرى ، وقامت على نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية موائمة لسير الحياة ، وخطى العصر في القرن التاسع عشر على يد أحد المتصوفة المسمى « بالحاج عمر تال » .

ودور « الحاج عمر » في هذه الفترة يعتبر من أشد المراحل التي مرت بها هذه المنطقة خطورة ، فقد قام بعملية توحيد السودان الغربي من بلاد « فوتا » إلى « تمبكتو » بحيث أصبح كل مواطن في هذه المنطقة يحس بأنه ليس تائها في أرض شاسعة بلا علم ، ولا وطن ، ولا ذكريات ، وإنما يحسّ بأنه مرتبط بجهاز بشرى ضخم ، يقف على قمته « الحاج عمر تال » .

وقد عاش « الحاج عمر » يحلم بهذا الوطن الكبير الذى يربط بين الناس ، ويؤلف بين قلوبهم ، منذ كان طفلا ، وشابا ينتمى إلى البيت الحاكم في « فوتا » ، وقد ضمّ رغبته هذه إلى رغبات الناس التي تحب أن تتلاقى ، وتمتزج في شيء كبير يسمى « الوطن » وقد ساعدته على ذلك رغبته الدائبة في البحث ، والوصول إلى القيم المضيئة ، كما ساعدته الطبيعة من حوله حيث الصحراء التي لا يعرف مداها ، والغابات التي تتعانق في مودة ، واللانهائية الزرقاء التي تمتدّ وتمتد في حب ، وحنو .. وقد كانت ثمة هذا كله مرحلة من مراحل التصوف التي سارت به إلى مكة حاجاً ، وإلى التجانية طريقة ، وإلى التوكولير وطنا .

وقد فهم « الحاج عمر » التصوف في هذه الفترة فهما إيجابيا ، فلم يقف به عند السبحات العاجزة ، والتوسل المشدوه ، وإنما فهمه على أنه رسالة إسلامية كبيرة ، يجب أن تشق طريقها بين ظلام الوثنية في هذه البلاد ، كما فهمه حبا للاستطلاع في نظم البلاد اللامعة في تاريخ القارة في هذه الفترة « كمصر » وبلاد « برنو » ،

« وسكوتو » ، ثم فهمه أخيرا جيشا منظما يسير ليعلن كلمة الله فى كل البقاع من حوله .

وقد بدأ جهاده من « فوتوجالون » حيث أقام بها مركزا ثقافيا سرعان مانمى ، وازدهر ، وأصبح إحدى نقاط ارتكاز الإسلام فى هذه البلاد . على أنه لم يقف عند حد الدين ، وإنما جعل منه كذلك نقطة ارتكاز للأعمال التجارية ، ثم جعله أخيرا نقطة وثوب له على الإمارات الوثنية المحيطة به .

وقد بدأ جهاده فى بلاد « كاراتا » التى ما كاد يدخلها منتصرا عام ١٨٥٤ حتى أشاع فيها المعرفة والأمن والسلام ، ثم عمل على التوسع فى حوض السنغال الأوسط وأعد العدة لذلك ، ولكنه قوبل بنشاط فرنسى يتحسس بأقدامه هذه البلاد بين عامى ١٨٥٧ ، ١٨٥٩ فلا يرى من الحكمة الاصطدام به ، ومن هنا رأيناه يتحول عن مد نفوذه فى هذه المنطقة إلى الشرق .

وكانت نتيجة هذا كله أن وقعت مملكة « سيجو » فى يده عام ١٨٦١ ، ثم مملكة « حسينا » عام ١٨٦٢ ، وأخيرا استولى على « تمبكتو » إحدى البلاد التى أضاءت بالعروبة والإسلام فترة كبيرة من الزمن .

وباستيلائه على « تمبكتو » وضع تحت يديه إمبراطورية ضخمة تمتد من بلاد « فوتا » إلى « تمبكتو » ، وقد كانت هذه الإمبراطورية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ومنارة إسلامية ذكر فيها اسم الله لأول مرة فى هذه المنطقة ، بالرغم من تصدى الجنرال « فيدروب » لها ، ولكنها كانت تحمل بذور انتهائها بمجرد موت « الحاج عمر » عام ١٨٦٤ ، وذلك لأنه كان قد وضع أولاده ، وأولاد أخيه رؤساء على الولايات المتحدة التى تتكون منها إمبراطوريته ، وكان بينهم من الضعف والتحاسد ماجعلهم يفشلون فى مواجهة الثورة عليهم من الداخل ممثلة فى الشعب ، ومن الخارج ممثلة فى فرنسا .

ومع أن ابنه أحمد (أمادو) قد استطاع أن يخمد الثورة من حوله ، ويجمع

الأمور فى يده فترة من الزمن ، إلا أنه انتهى أخيرا تحت ضغط القوتين : الداخلية والخارجية ، وبهزيمته على يد الفرنسيين عام ١٨٩٨ تداعت أسس هذه الإمبراطورية وتصدعت أركانها ، وأصبحت غنيمة باردة فى يد الفرنسيين .

وقد مرت سنوات وسنوات على هذه الهزيمة ولكن شعب « التوكولير » لم ينسها أبدا ، فعلى الرغم من استنزاف الفرنسيين لقواه ، وتحطيم اقتصاده ، وإبعاده عن معتقداته نرى الشعب يعود مرة أخرى على يد واحد من أبناء هذه المنطقة ، ويعلن من جديد ميلاد هذه الدولة الإسلامية فى غرب القارة .

فإذا سألت عن اسم الدولة ، وعن اسم البطل أجابت القارة كلها « إنها غينيا ، وإنه سيكوتورى » .

ماء العينين

يعتبر « ماء العينين » واحدا من أبطال إفريقية الغربية الذين صمدوا فى وجه الاستعمار ، واستطاعوا أن يؤكدوا مقاومة الوطنيين للاستعمار الفرنسى بحزم وقوة ، بعد أن رأى هذا القطاع الكبير تلتف حوله فرنسا ، وتريد أن تضمه إلى أملاكها لتتكون منه مايسمى بإفريقيا الغربية الفرنسية .

و قد نشأ « ماء العينين » فى المنطقة الصحراوية المعروفة الآن « بموريتانيا » ، التى استقلت أخيرا ، والتى تطالب بضمها الآن المملكة المغربية ، والتى كانت تمثل قبل ذلك واحدة من المقاطعات الثمان التى تكون إفريقية الفرنسية الغربية ، والتى كان يحدها نهر السنغال من الجنوب ، ومن الشمال ريودى أورو والجزائر ، ومن الشرق مالى ، ومن الغرب المحيط الأطلسى .

كما نشأ فى الوقت نفسه فى مجتمع عربى إسلامى أمكنه أن ينفعل به ، وأن يطوره ، وأن يقف على قمته كزعيم للقبائل العربية هناك ، وأمكنه من خلاله أن يشهد حركة تقسيم القارة الإفريقية بين الدول المستعمرة ، وتسهيل كل دولة للأخرى احتلال الأراضى الإفريقية على حساب المواطنين أنفسهم ، حتى لقد كانت القبيلة الواحدة تنشطر إلى عدة حمايات ، بل لقد وصل الحد إلى الأسرة الواحدة ، فكان الجد يثقل بالحماية الفرنسية ، والأب تضغط عليه الحماية البريطانية ، والحفيد يصرخ تحت الحماية البلجيكية . !

وقد شهدت هذه المنطقة كثيرا من ألوان الصراع ، فكان البرتغاليون فى القرن الخامس عشر أول من طرق الساحل الموريتانى ، وكان الأمير هنرى الملاح

من أوائل الذين شجعوا على إرسال البعثات إلى هذه المنطقة ، وكذلك كان الهولنديون ، والأسبانيون ، أما الفرنسيون فقد قدر لهم أن يشكلوا الحياة فى هذه المنطقة .

فقد بدأ الفرنسيون يحاولون فى نهاية القرن التاسع عشر استكشاف المناطق الغربية من إفريقية ، وذلك عن طريق بعثات خاصة تجوب هذه المناطق ، وتنصح حكومتها بالانضمام إلى فرنسا ، كما كانوا يقومون بمهمة المخابرات عن إمكانيات البلاد وقوتها حين تعزم فرنسا على القيام بعمليات حربية .

وقد رأى « ماء العينين » هذا النشاط ، وعرف ما قد يترتب عليه حين يتمكنون من تثبيت أقدامهم فى هذه البلاد، وبخاصة حينما وضعوا أيديهم على بعض المناطق المجاورة.

فقد صمم على وقف هذا التوغل ، ودعا رؤساء القبائل إلى التعاون معه فى هذا المجال ، وإلى عدم إمداد الأجانب بأية معلومات ، أو تزويدهم بالمؤن اللازمة لهم فى رحلاتهم .

ولكن قوة فرنسا الاستعمارية أخذت فى الازدياد ، وأخذت قواتها تتوغل من غرب القارة صوب الداخل لتحقيق فكرة السيطرة على كل إفريقية الغربية ، وفى سبيل هذا نراها تعمل من جانبها على الاتفاق مع أسبانيا لتقسيم مناطق النفوذ فى هذا الجزء من العالم ، ومن هنا نراهما يوقعان معاهدات ، واتفاقيات لتقسيم صحراء المغرب الجنوبية إلى قسم يتبع أسبانيا ، وهو ما سمى فيما بعد بريودى أورو ، أما القسم الآخر فيخضع لفرنسا وهو الذى سمى فيما بعد باسم موريتانيا ، أما فى الشمال فإن فرنسا ستقبل ترك منطقة الريف الشمالية لأسبانيا فى مقابل اعتراف هـذه الدولة الأخيرة بالحماية الفرنسية على بقية المغرب . وهكذا فتتت هذه المنطقة بعد أن كانت موحدة قبل مجىء قوات الاستعمار إليها ، ذلك لأن صحراء موريتانيا ليست إلا امتدادا طبيعيا للامبراطورية المغربية ، وقد كانت أهم منطقة فى هذا الامتداد بلدة « شنقيط » التى أعطت للمغرب عددا كبيرا من العلماء .

وهكذا نرى « ماء العينين » يشعر بخطورة هـذا التقسيم ، كما يشعر بخطورة تغلغل الأجانب ، ومن هنا نراه يسارع بتوطيد صلاته بسلطان المغرب ، ويعمل على خلق جبهة مناوئة للاستعمار، ثم نراه أخيرا يقود حركة الجهاد الإسلامية ، التيعبأفيها قوى الشعب العربى فى جنوب المغرب ضد كل القوى الدخيلة فى هذه المنطقة ، فقدكان الفرنسيون يحاولون إغراء العرب فى أول الأمر بترك قوافلهم ، ومواصلاتهم نظير دفعهم جزية سنوية لهؤلاء العرب ، بل لقد كانت السلطات الفرنسية فىالسنغال توصى بدفع هذه الإتاوة لهؤلاء البدو ، ولم تحاول هذه السلطات الاستعمارية التدخل فى أى نزاع يقوم بين سكان هذه المنطقة ، ولـكن هذا الاتجاه تغير مع الزمن ، وبخاصة بعد أن زادت حاجة فرنسا إلى المواد الخام ، وحاجتها إلى أسواق خارجية للتصريف ، فقد أخذت تتدخل فى الخلافات التى تقوم بين العـرب ، ورفضت دفع الجزية على قوافلها ، وفى الوقت نفسه أخذت تستعد عسكريا لفرض سيطرتها التامة على الإقليم، كما أخذت تتعاون مع أسبانيا لهذا الغرض نفسه .

وحين رأى « ماء العينين» ذلك ، وجه نظره إلىملك المغرب ، وأقنعه بضرورة إنشاء جبهة موحدة فى الشمال والجنوب لتوقف كلا من الفرنسيين والأسبانيين ، وقد وافق ملك المغرب على ذلك ، وأرسل بالفعل أحد أقاربه على رأس قوة من الجيش المغربى النظامى إلى القطاع المتنازع عليه ، ولـكن كل من فرنسا وأسبانيا رفضت الاعتراف بهذه الوحدة ، وأعانت على التفرقة بين كل من القوتين حتى يتم الانتصار على القوى الوطنية .

ولـكن « ماء العينين » كشف هـذه المؤامرة ، ورفض الاستماع إلى ادعاءات الغربيين ، وانتهز فرصة وجود قوات ملك المغرب لـكى يعلن الجهاد باسمه ، ويحمل عليه ، ويعبىء قوى المسلمين والعرب فى هذه المنطقة ضد هذه القوى الأجنبية .

وقد استمر هذا الجهاد مدة سنوات طويلة ، ولم يتمكن الفرنسيون من القضاء عليه ، ولـكنهم انتهزوا فرصة مجىء سلطان آخر ضعيف فى المغرب ، وكان يخشى على

نفسه من شعبه ، ولا يجد حرجا فى الالتجاء إلى الأجانب ، انتهزوا هـذه الفرصة فضغطوا عليه ، وأجبروه على سحب قواته من موريتانيا ، بل على الاعتذار عن إرسال السلطان السابق قوة إلى هذه المنطقة المتنازع عليها ، وادعى أن هذه القوة قد ذهبت للفصل بين الأهالى المتنازعين فى هذه المنطقة ، ومن هنا كان على بدء الجنوب بزعامة «ماء العينين» أن يواصلوا وحدهم المعركة أمام القوات المعتدية، وهذا ما حدث فعلا ، لأنا نرى هذا الزعيم يواصل الحرب ، وقد ساعدته طبيعة البلاد الصحراوية ، وخفة حركة أبنائها على الهجوم فى أكثر من جبهة ، وهكذا نرى رجاله يصلون إلى حدود السودان ، والسنغال ، والجزائر ، ويدخلون الأراضى المغربية تارة وأراضى ريودى أورو تارة أخرى ، وفى كل هـذه المجالات حققوا انتصارات على القوة الفرنسية ، وحينما عجزت فرنسا عن تدمير هـذه القوى نراها تجنح إلى الحرب الاقتصادية ، فتعمل على مصادرة إبل الأهالى ، وإتلاف محاصيل القبائل التى تتعاون مع «ماء العينين» ولـكن كل هذا لم يدمر نفسية الشعب الموريتانى الذى كان قد التف كالغابة حول زعيمه .

ولم يقف انتصار هذا الزعيم عند هذا الحد ، وإنما تعداه إلى «المغرب» نفسه فحين استعدت القوات الفرنسية قبيل الحرب العالمية الأولى لاحتلال المغرب نرى «ماء العينين» يصل إلى هذه المنطقة على رأس بعض رجاله للدفاع عنه ضد هؤلاء الدخلاء ومع أن سلطانه ، وبعض القبائل المجاورة قد تخـلوا عن نصرته من فترة ليست بالبعيدة ، إلا أنا نرى هذا الزعيم يفهم القضية على وجه آخر يخالف فهم السلطان المغلوب على أمره ، ورؤساء القبائل المنهارين ، فقد فهم القضية على أنها قضية الوطن الـكبير ضد كل القوى الأجنبية ، وأنه مسئول عن أى مكان فى «الغرب الإفريقى» تطؤه القوى الأجنبية .

ولقد ضيق الفرنسيون عليه الخناق حتى صعب قيامه بتنفيذ عمليات حربية، والقيام

بحركات يشلُّ بها تقدم الفرنسيين ، كما قاموا فى الوقت نفسه بإنزال الضربات بالقبائل التى تلتف حوله كقبائل الورز ، والأورار .

وكان لابد من مقابلة الفرنسيين وجها لوجه ، وحقدا لحقد ، وفى إحدى هذه المعارك استشهد « ماء العينين » بعد أن أكد الشعور الإسلامى فى هذه المنطقة ، وتركها مخضبة بشرف الدفاع عنها ، فليس آلم للوطن من استسلامه دون دماء تلفُّ كيانه الكبير ، فالدماء هى الأعلام الحمراء التى تلف بكل وطن شهيد ، وهو يتلقى الضربات ، ثم يتهاوى بين أيدى الأعداء .

وإن « موريتانيا » التى استقلت أخيرا لتفخر بهذا الدم الذى نزف من هذا القلب الكبير الذى أكد وجود العرب فى هذه المنطقة ، والذى أدمجهم مع السكان الأصليين ، وجعل منهم كيانا كبيرا لا يسلم رقعة صغيرة من الوطن أمام المعتدين إلا وفى قلبها رصاصة ، ومن حولها دم ، ومن فوقها شهيد ، فما أكثر الذين استشهدوا فى هذا القطاع الكبير من حول « ماء العينين » .

السلطان سعيد

يعتبر السلطان « سعيد » من أقوى سلاطين « آل بو سعيد » الذين أقاموا لهم سلطنة قوية فى شرق إفريقية ، والذين قدموا من « مسقط » ، ووصلوا إلى « ممباسة » فى عام ١٦٩٨ ليخلصوا أهل البلاد من الظلم « البرتغالى » الذى وصل إلى حد انتهاك المشاعر الدينية هناك ، وتحويل المساجد إلى زرائب للحيوانات ، وقد نجحت هذه الأسرة فى عهد الإمام سيف فى ضم بمبا Pemba وكلو kilwao الإفريقيتين وجعلهما تابعتين لعمان مباشرة ٠

ولكن بمرور الأيام ضعف سلطان هذه الأسرة ، وبخاصة حينما تدخل الفرس فى شئونهم ، واشتد هجوم القراصنة عند مدخل الشاطىء الهندى ، واختلف الحكام فى زنجبار ، وبمبا ، وممباسة ، ثم كان اغتيال السلطان «سلطان» برصاصة عام ١٨٥٤، وتسليم الحكم إلى ابنه « سعيد » الذى كان عمره حين مقتل والده ثلاثة عشر عاما ، وهكذا نهض سعيد بالحكم وفى ضميره دائما كان يتدفق دم والده ، وحزنه عليه ، وخوفه من فقد العرش ، وقد حمله كل هذا إلى قتل عمه « البدر » الذى تناقلت الأنباء عنه أنه طامع فى العرش ، وهكذا بدأ السلطان حكمه ظالما ومظلوما !

وقد ظل طوال عشرين عاما من حكمه وهو يهدىء الثائرين من حوله ، ويريد أن يؤكد دائما هذه السلطة التى مدت نفوذها على كل السواحل الشمالية الغربية وفى شرق القارة الإفريقية ، والتى جمعت فى يديها خطوط الملاحة بين الشرق الأقصى ، وبين الخليج العربى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر وأقاليم شرق إفريقية ، والتى كان يخطو معها الإسلام فى كل خطوة تمدها فى كل الشرق الأفريقى ٠

فرغم أن المحيط الهندى قد شاهد — فى أوائل القرن السادس عشر — مجىء البرتغاليين إلى هذا القطاع ، وسيطرتهم على موزمبيق ، وسواحل إفريقية الشرقية ، إلا أن العرب ظلوا محتفظين بتجركاتهم التجارية رغم كثرة السفن البرتغالية فى هذه المياه ، وقد ظلوا يراقبون هؤلاء الدخلاء حتى استطاعوا بعد قرن ونصف قرن القضاء عليهم ، ورفع رايتهم على هذه المناطق .

وعلى رأس هذا الانتصار تجىء الفترة التى حكم فيها « سعيد » ، والتى بعد أن استقر له الحكم أخذ فى إقامة نظام سياسى واقتصادى يدعم سلطانه ، فقد بعث بالحكام والجند إلى المدن من حوله ، وأعطاهم كافة السلطات التى يستطيعون بوساطتها إقرار الأمن الداخلى ، وتنمية الموارد الاقتصادية ، وجمع الرسوم على الصادر والوارد ، وتشجيع الملاحة ، ومن فوق هذا الجهاز كان يشرف على هذه الإمبراطورية ، ويحميها من الغزو الداخلى ، والخارجى ، ويمنع — حتى الأفراد — من الدخول فى علاقات مع الدول الأجنبية .

وقد عمل بقواعد اقتصادية بسيطة على تنمية تجارته ، ومع أنه أصبح من الأثرياء فى التاريخ إلا أنه لم يتدخل فى إداراته لأملاكه الإفريقية إلا بالقدر اللازم فقد كان يصمم الخطة ويترك التنفيذ لمن حوله ، وقد أظهرت هذه الخطة أن أهم صفة من صفاته هى اهتمامه بالاقتصاد ، أما اهتمامه بالسياسة والحرب فقد كان أقل من اهتمامه بشئون المال .

وفى ضوء هذا نراه يضع برنامجا اقتصاديا استمد نجاحه من عملية « التكامل » التى اختطها فى هذه المنطقة ، كما أدخل عملة نحاسية جديدة إلى جانب العملة الفضية الأجنبية التى كان يستخدمها الأهالى مثل ريال ماريا تريزا ، والعملة الأسبانية ، ثم نراه يعمم النظام الجمركى ، ويفرض ضريبة موحدة هى ٥٪ على كل الواردات ، أما الصادرات فيعفيها من كل الرسوم .

كما أنه شجع زراعة القرنفل ، وعمل على إنعاش وتوسيع نطاق تجارة القوافل مع الداخل ، وحض التجار الأجانب على العمل فى موانى شرق إفريقية ، وعقد معاهدات تجارية مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية ، وانجلترا ، وفرنسا وسمح بإنشاء قنصليات فى زنجبار ، وشجع الهنود على الإقامة الدائمة فى بلاده ، وفى الوقت الذى سمح لهم فيه بحرية العبادة نراه يستعين بهم فى الشئون الاقتصادية .

وقد أثمرت هـذه السياسة التى اختطها ، فقد تضاعف إيراده — فى الفترة ما بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٥٦ — عشر مرات ، وازدهرت فى هذا العهد مدينة زنجبار بحيث أصبحت أكبر ميناء فى شرق إفريقية ، وأكبر مستودع للتجارة الإفريقية الآسيوية ، والمورد الرئيسى لتزويد العالم بالقرنفل ، كما أصبحت أكبر سوق لتجارة سن الفيل .

ويمكننا أن نرجع أهمية زنجبار فى عهده إلى توغل التجارة العربية داخل القارة الافريقية أكثر من إرجاعها إلى ازدهار تجارة القرنفل بها .

ويمكننا بالتالى اعتبار المناطق الإفريقية التى وصلت إليها هـذه القوافل امتدادا لدولة السلطان سعيد على الساحل ، وإن كانت لم تخضع له بالفعل ولم يحاول هو إقامة حكومات منظمة بها ، وذلك لأن توغل هذه القوافل المسلحة فى هذا القطاع قد ساعد على احتفاظ سكان الداخل بالولاء له ؛ وخطابات توصيته للرحالة والمكتشفين الذين جاسوا خلال هذه المنطقة تشهد بعملية الولاء هذه .

ونحن نرى السلطان سعيد يعطى كل وقته للأقاليم الافريقية ، ويهمل من أجل هذا إقليم مسقط ، حتى أنا نراه فى عام ١٨٤٠ ينقل عاصمته إلى زنجبار ، وإن كان بين الوقت والآخر يترك الأقاليم الإفريقية ، ويتوجه إلى هذه المنطقة الآسيوية لإخضاع إحدى القبائل ، أو للقضاء على الفتن هناك ، ثم نراه أخيرا يهمل فيعتمد على السلطات البريطانية فى الهند للاحتفاظ بأملاكه الآسيوية .

وقد ساعده على هذا أن انجلترا قد خرجت قوية بعد حروبها مع نابليون فى عام ١٨١٥ ، وزاد نفوذها ، فوضعت يدها على مستعمرة رأس الرجاء الصالح وسيلان ، وجزيرتى موريس ، وسيشل ، وأصبح فى استطاعتها أن تتدخل ، وتضم أى جزء من الأراضى المطلة على المحيط الهندى دون أن تستطيع قوة الوقوف فى وجهها ، كما شعر أن الانجليز يمكن أن يحموه من هجوم الوهابيين ، أو الفرس ، أو المصريين الذين ذهبوا إلى البلاد العربية .. إن فكروا فى الهجوم على ممتلكاته ، وهذا التفاهم « غير المتكافىء » مع انجلترا جعله يتنازل لها بعد أن احتلت عدن عام ١٨٣٩ عن بعض الجزر الصغيرة المسماة « كوريا موريا » عند الساحل الجنوبى لحضرموت ، وجعله يناصب الفرنسيين العداء ليمنعهم من التوسع فى السواحل الصومالية المطلة على المحيط الهندى .

ولكن تفوق انجلترا البحرى فى المحيط الهندى اضطر السلطان سعيد إلى قبول السياسة البريطانية الخاصة بمحاربة تجارة الرقيق ، والتى كانت انجلترا قد جعلت من هذه الدعوة الإنسانية ستاراً تخفى وراءها محاربتها للدول التى تعتمد على الأيدى العاملة المشتراة فى إنتاجها الزراعى والصناعى ، وكان أن أعطت لنفسها حق تفتيش السفن الأجنبية ، ومصادرة ما عليها من شحنات بشرية ، حتى تحرم حقول القطن وقصب السكر فى أمريكا من منافسة المستعمرات البريطانية ، وعقابا لها على استقلالها عن انجلترا ، وفى سبيل هذا عملت انجلترا على تأكيد سياستها البحرية وأعدت العدة للقضاء على التجارة الإفريقية ، وعلى القوة البحرية للإفريقيين بما كانت تقوم به من المصادرة ، وإيقاف الشحن ، وقد كانت أملاك السلطان « سعيد » من أهم مخارج القارة لعملية التصدير هذه .

وقد جاهد السلطان سعيد هذه السياسة البريطانية ، وتوصل إلى إقناع البريطانيين بضرورة التدرج فى سياسة منع تجارة الرقيق فى أملاكه ، بعد أن

عرضت عليه انجلترا فى عامى ١٨١٢ ، ١٨١٥ المعاونة فى منع هذه التجارة ولكنه رفض ، ثم اضطر فى عام ١٨٢٢ إلى أن يوافق على نصف ما طلبته بريطانيا منه بعد أن ضغطت عليه السلطات البريطانية فى الهند ، وقد كان هذا تنازلا كبيرا من جانب السلطان اضطر إلى تنفيذه ، وتحمل أعبائه حتى لا يترك لإنجلترا حرية التدخل فى بلاده ، وحرية العمل على اصطياد سفن العرب والإفريقيين ، ومصادراتها بدعوى اشتغالها بتجارة الرقيق .

ولم تمض سنوات طويلة حتى أعاد الانجليز الكرة ، وأخذوا فى الضغط عليه مما دعاه إلى أن يشرح لهم خطورة الموقف ، وخطورة الاصطدام بالارستقراطية التجارية إذا تعرضت رءوس أموالها للضياع ، ولكن انجلترا أصرت على موقفها ، ولم يكن مفر من قبوله معاهدة جبرية فى عام ١٨٥٤ تحرم بمقتضاها على التجار العرب نقل الرقيق إلى الخليج العربى ، وإلى البحر الأحمر ، ومع أنه نفذ جزءا جديدا من السياسة البريطانية ، وتحمل بمقتضاها مسئولية جديدة نتيجة لمصالحها التجارية ، إلا أنه حرم انجلترا من فرصة التدخل فى سواحله . ومن فرصة إطلاق مدفعية الأسطول البريطانى — وكان على أهبة الاستعداد — على مدنه .

ومهما يكن من شيء فقد أكد السلطان سعيد دوره فى الملاحة العالمية بفضل قطع أسطوله المتعددة ، وعمل على ازدهار موانيه بصورة لم يسبق لها مثيل ، وأصدر أوامر بالإكثار من زراعة القرنفل وجوز الهند ، بواقع ثلاثة أشجار من القرنفل إزاء شجرة واحدة من جوز الهند ، ويعتبر عهده من أقوى العهود التى شاهدها هذا الإقليم الإفريقى فى وحدة مع أقاليم جنوب شرق الجزيرة العربية .

وبموته فى عام ١٨٥٦ تولى ابنه الأكبر « ثوينى » القسم الآسيوى من سلطنته وابنه « مجيد » القسم الإفريقى ودخلا فى نزاع أوهن من هذه الوحدة ، وجعلاها مهيأة للسقوط فى يد الأجانب .

منليك الثانى

يعتبر « منليك الثانى » من أعظم الملوك الأثيوبيين الذين استطاعوا توحيد البلاد وإجبار الدول الأجنبية على استقلال بلاده فى نهاية القرن التاسع عشر ، فى الوقت الذى كانت تتساقط فيه الأرض الإفريقية تحت أقدام المستعمرين ، والمبشرين ، والمحتكرين .

ورغم أنه كان لايعرف القراءة والكتابة إلا أنه وعى تاريخ بلاده ، وعلاقتها بجيرانها فعرف أن بلاده قد تعرضت للمد العربى قبل الإسلام ، وفى أوائل ظهوره ، وبعد أن ظل يمتد ويمتد حتى صارت « جزيرة مسيحية » مستعصية على الذوبان فيه ، كما عرف أن مصر تربطه بها صلة الدين ، ومن هنا فهم كما فهم كثيرون من حكام الحبشة أن كل حرب أو اختلاف مع دولة مجاورة يرجع فى حقيقتة إلى الدين ، فالعمليات التوسعية التى قام بها « الخديوى اسماعيل » لتأمين الطريق إلى إمبراطوريته فى إفريقيه بين ساحل البحر الأحمر وقلب القارة اعتبرت حربا دينية ، وتأمين حدود السودان الجنوبية الشرقية فى عصر الدولة المهدية فى السودان صورت كذلك بأنها حرب ضد المسيحيين .

هذا هو الفهم الذى كان سائدا فى عصره ، ولكن الظروف أثبتت له أخيرا أن أعداءه الحقيقيين هم أولئك الأورويون الذين يتربصون ببلاده ، ويتحينون الفرص ليثبوا عليها ، ولكن عينيه كانتا على كل شبر من أرض وطنه ، فقد علمته حياته الحذر ، والخوف ، والمبادرة .

فقد رأى والده يفقد ملكه فى ميدان القتال ، ورأى نفسه يقوم بأعباء هذا

الحكم وهو مازال فتى صغيرا ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام الملك « كاسا » الذى حطم قواته ، وحمله معه أسيرا إلى مقر حكمه فى « مجدالا » ، ورغم أن « كاسا » أحبه ، وأنزله فى بيته كواحد لمن أبنائه إلا أنه حين رأى أن الملك مشغول بقتال الانجليز نراه يفر ، ثم يلتجىء إلى ملكة «وولوجلا» التى خيرت بين تسليمه ، وبين ابنها الذى يحتفظ به الملك رهينة ، ولكنها لم تقبل ، واضطرت أن تدفع فى سبيل حماية جارها ابنها ، ثم تاجها نفسه من بعده ! .

وحين شدد عليه الحصار نراه يهرب إلى « شوا » موطنه الأول ، ثم يعمل على تدعيم ملكه بأساليب السياسة ، وقد كان يحلو له دائما أن يدرس فى هذه الفترة طبيعة الناس فى بلاده ، حتى يتمكن من معاملة كل منطقة بأسلوب يتفق مع ظروف حياتها ، فقد كان عازما على توحيد البلاد ، وضمها إلى حكمه ، وقد اهتدى إلى هذه الحقيقة فى القصة التى تروى أنه جاء من أورشليم إلى الحبشة ثمانية أشخاص يتمثلون فى المعانى الآتية : الحماقة ، وصلابة الرأى ، والأنفة ، والحضارة ، والشجاعة ، والأمانة ، والسذاجة ، والسياسة ، فلما وصلن إلى بلاد « تيجرى » صاحت الحماقة « لقد وجدت أخيرا مستقرى » وتخلفت عن الركب ، وانطلقت الأخريات ، ولما وصلن بلاد « سمين » قالت صلابة الرأى « قد وجدت مكانى وسأقيم فيه » وسارت الباقيات ، ولما بلغن بلاد « وجارا» وتلفتن أجابت الأنفة « قد وصلت إلى مملكتى » وتابع الركب سيره ، ولما وصلن إلى بلاد « جندار » هتفت الحضارة « لقد وجدت مدينتى التى سأقيم فيها » وتابع الركب سيره ولما بلغن بلاد « بيجمدار » قالت الشجاعة « ما أجمل هذا المكان سأستقر هنا » ، ولما بلغت الثلاث الباقيات « دبراتابر » وقفت الأمانة على قمة جبل ثم طوفت ببصرها حتى استقر على بلاد « جوجو مام » فقالت « استأذنكما فى هذه البلاد نهاية مطافى » ثم تابعت الأخيرتان السير إلى بلاد « أمهرا » التى ما كادت تراها السذاجة حتى هتفت « لن أغادر هذا

المكان » ، وظلت السياسة سائرة — وهي دائما طموحة — حتى اهتدت إلى مقاطعة « شوا » وقالت « هنا أقيم ، ومن هنا أحكم ! » .

وكثيرا ما كان يردد « منليك الثانى » لقد كنت أنا هذه « السياسة » فى هذا المكان سأقيم ، ومن هذا المكان سأحكم ! .

وقد ظل يتوسع فى منطقته على حذر خوفا من الإمبراطور يوحنا الذى كانت تدين له كل المقاطعات بالطاعة ، ولكن « منليك الثانى » تحين فرصة صراع الإمبراطور مع الخديوى اسماعيل — الذى كان قد طوق الحبشة من الغرب ، والشرق والجنوب — وهجم على مملكة يوحنا ، وقد أراد إسقاط « يوحنا » ، ولكنه اضطر للعودة إلى « شوا » لقيام ثورة ضده فيها ، مما اضطر « يوحنا » إلى السير إليه ، والاستيلاء على بلاده ، وفراره .

وقد شغل عنه « يوحنا » بالإيطاليين الذين تقدموا إلى بلاده من الشرق ، ثم بالثورة المهدية التى تقدمت فى البلاد الحبشية ، وحصلت على رأس الإمبراطور يوحنا . : وكان أن نصب « منليك الثانى » مكانه ، وأراد تثبيت ملكه فتقدمت إليه إيطاليا بالصداقة ، والأموال ، والأسلحة ، وتوج هذا كله بمعاهدة الصداقة التى عقدت فى « أوتشيللى » عام ١٨٨٩ .

وهنا ظهر حادث من أعجب مايذكر فى تاريخ السياسة الدولية ، فما كادت إيطاليا تحصل على هذه المعاهدة حتى أبلغت الدول الأوروبية أنها وضعت الحبشة تحت حمايتها ، مستندة فى ذلك إلى المادة السابعة عشرة من المعاهدة التى تمت بينهما ، فقد ذكرت إيطاليا أن هذه المادة تنص على تنازل الإمبراطور منليك الثانى عن إدارة العلاقات الخارجية لبلاده ، ووضع مصيرها فى يد إيطاليا ، ولكن الإمبراطور رد بأن النسخة المكتوبة بالأمهرية تنص على أنه يمكن للامبراطور أن يكلف إيطاليا بالاتصال بالدول الأجنبية حينما يحب ، وشتان بين النصين .

وقد دخل مع إيطاليا فى معركة قانونية ، وانقسمت الدول وفقا لمصالحها إلى كل من الجانبين فقد اعترفت انجلترا ، وألمانيا ، وبلجيكا بالحماية الإيطالية على الحبشة ، بينما أيدت الإمبراطور فرنسا ، وروسيا ، وأصرت على استقلال الحبشة ، وأن دعوى إيطاليا باطلة ، وسارع الإمبراطور بإرسال ما تسلمه من القرض الإيطالى إلى أحد مصارف عدن ليسلمه بدوره إلى إيطاليا ، وأعلن أن بلاده لا تربطها بإيطاليا أية صلة ، وتوسع فى الدعوى فذكر أن بلاده قد وصلت فى الزمن القديم غربا إلى النيل الأبيض ، وشرقا إلى سواحل البحر الأحمر ، ولكن إيطاليا أصمت أذنيها عن هذه الدعوات ، وذكرت أن هذا الاحتجاج ككل احتجاجات الزنوج يجب ألا يؤبه إليه ، وإلا تعرضت الدول الأوروبية إلى كثير من المشكلات فى إفريقية !

ولم تناد فرنسا وروسيا بالحرية رغبة فى تحرر الحبشة ، وإنما رغبة منها فى تدمير إيطاليا ، ووقف خطواتها ، وقد استفاد منليك من الصراع بين هذين المعسكرين ، وظل محتفظا باستقلال البلاد ، ولكن الدول المناوئة له أرادت تقويض حكمه من الداخل ، فلجأت إلى محاولة التفريق بين الجهات الوطنية فى البلاد ، وتكون زعامات مناوئة له فى الشمال ، ولكن « منليك » تغلب على كل هذا ، وحذر المواطنين من هذه الفتنة ، واستخدم فى الوقت نفسه الخبراء والأسلحة من المعسكر الذى يناصره .

ولم يهدئ كل هذا من ثورة إيطاليا فتراها تقتحم البلاد من الشمال ، ونرى منليك يسيِّر جيشه إلى هذه المنطقة ، وتكون بين الفريقين معركة « عدوة » التى تحطم فيها الجيش الإيطالى تحطيما كاملا .

وقد اهتز الرأى الأوروبى لهذه الهزيمة ، وخشى من أثر هذه المعركة فى رفع مستوى الروح المعنوية الإفريقية ، وكانت أشد الدول تأثرا انجلترا التى توجست خيفة من قيام حلف بين الحبشة والسودان يهدد نفوذها فى مصر التى كانت محتلة

بجنودها ، ويهدد فى الوقت نفسه أسطورة الرجل الأبيض الذى كان فى الوقت نفسه يمد نفوذه فى كل مكان ، ويشتبك بالفعل فى معارك فى جنوب إفريقية .

وقد كان من أثر هذه المعركة كذلك أن سارعت إيطاليا إلى الصلح ، والاعتراف باستقلال الحبشة ، والحدود بينها وبين اريتريا ، وحين طالبت فرنسا ثمنا — لوقوفها بجواره — السماح لجنودها فى المرور من الشرق إلى الغرب ، والوصول إلى أعالى النيل فى فاشودة نراه يراوغ ويطلب منها تحديد امتداد مستعمراتها التى تمتد على ساحل الصومال بخمسين ميلا فقط موازية للساحل ، وفى الوقت نفسه نراه لا يقدم معاونة تذكر للوصول إلى « فاشودة ! »

كما كان صدى لمعركة « عدوى » أن الانجليز قد أرسلوا بعثة « رنل رود » لتحطيم مقدمات التحالف التى كانت قد بدأت تظهر بين السودان والحبشة لأنها كانت قد أعدت العدة لغزو السودان ، ومع أن « منليك » يوافق على عدم التدخل لصالح السودان ضد انجلترا ، إلا أنه ينتهز الفرصة ، ويجبر الانجليز على ترك بعض ممتلكاتهم على ساحل الصومال .

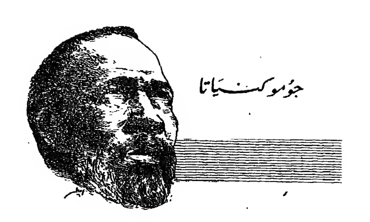
وهكذا نرى منليك يهتدى إلى أن أعداءه الحقيقيين ليسوا جيرانه من المسلمين وإنما هؤلاء الغرباء الوافدين على إفريقية ، ويستفيد فى الوقت نفسه من الصراع الذى دار بين هذين المعسكرين لصالح بلاده ، ثم نراه يحقق « وحدة » البلاد ، ومهما كان شكل هذا الحكم ، واضطهاده بعض المواطنين ، فإنا نراه قد نجح فى حفظ استقلال البلاد .

وقد ظل يحكم البلاد بهذا الفهم العميق الفطرى حتى أخذ عقله يختلط فى آخر حياته ، وكان أن قامت زوجته بشئون هذا الحكم ، ثم توفى فى عام ١٩١٣ وكان فى آخر حياته — حتى فى فترة اختلاط عقله — يصيح دائما بأنه عدو للايطاليين

والإنجليز ، ثم أوصى بالحكم من بعده لحفيده « ليج ياسو » الذى اعتنق الإسلام ، وتزوج من أميرة مسلمة وكان هـذا أحد الأسباب التى أغضبت عليه المسيحيين فى الداخل والخارج ، واضطرت بعض « الرءوس » ورجال الدين إلى اعتقاله ، ويقال إنه مات غدرا .

ثم تولى الحكم الامبراطور الحالى « هيلاسلاسى » .





تمتلىء إفريقية اليوم بالبطولات السياسية ، والكفاح المستميت ، وتستطيع فى كل مكان تذهب إليه أن تلمح « جباها عالية » تزدحم حولها آمال الشعوب فى الحرية والمساواة وإزالة الفوارق اللونية ، والحواجز الوهمية ، واسترجاع الأرض الطيبة .

ومن بين هذه الجباه العالية تلمح « جوموكنياتا » البطل المكافح الذى عاش مرارة بلاده ، وأوجاعها ، وضياعها منذ عام ١٩٠٤ مع ٥٠٠ر٠٠٠ر٥ مواطن كينى فقد ولد فى أسرة فقيرة مطرودة من الجنة الكينية التى يطلق عليها « الأرض العالية » والتى تتميز بالخصب والجمال مع كثيرين من ضحايا الرجل الأبيض ، وكم فى هذه الأرض للشعب الكينى من ذكريات ، وآمال ، وعمر ، وتراث ! .

وكثيرا ما أطل جوموكنياتا[1] مع صبيان قبيلة الكيكويو من السفح الذى ألجئوا إليه فى حنان وألم إلى هذه الأرض الجميلة ، فقد سمعوها قصة تروى من شفاه شيوخ القبيلة ، ومن عيونهم أيضا ، فقد كانوا يبكون حينما يذكرونها فى حلتها الخضراء المتوجه بأشجار البن ، واخضرار الموز ، وكثيرا ما كانوا يطرقون وهم يتحدثون فيخيل للسامع من البريق الذى يلمع فى عيونهم ،

(١) معنى هذا الاسم الرمح المشتعل .

وحديثهم أنهم كانوا يرونها فى أعماقهم كذلك ، فقد عاشوها فصولا ، وبراعم ، ومراعى ، وأشجارا !

ومن هنا فلم يذق « جومو كنياتا » اليتم لأول مرة حين مات والده وهو فى العاشرة من عمره ، لأنه كان قد ذاق هـذا اليتم فى اليوم الذى عرف فيه أن « الأرض العالية » ، كانت يوما لأسرته ، وأنه لايستطيع الآن إلا أن ينظر إليها فقط ، وكبرت هذه الحصيلة من الألم فى أحد أمراضه على الموت .

وقد ساعد كل هذا فى النمو السريع لإنسانيته فكان رفيقا بزملائه فى الإرسالية ومسرعا إلى مساعدة الراهبات بعد فراغه من دروسه ، وكثيرا ما ضاعف عمله كنجار ليرسل إلى أسرته بالنقود ، فقد كان يخفف المشقة عليه أن العرق الذى يتصبب من جبينه يتحول إلى ابتسامات فى وجوه سوداء يحبها .. وجوه إفريقية يأكله الحنين إليها .

وقد خرج تماما من ذاتيته الضيقة إلى ذاتية شعبه عام ١٩١٩ حينما عين مترجما فى المحكمة العليا ، ورغم أنه حورب فى رزقه أكثر من مرة إلا أنه وصل بفضل ذكائه وقلمه إلى منصب رئيس تحرير « مويجتانيا » ، كما قفز إلى رياسة الجماعة التى أخذت على عاتقها تحرير بلاده . خاصة وأن تجاربه قد نضجت بأسفاره المتعددة ، فقد كان لأسفاره إلى روسيا وانجلترا أثر كبير فى نفسه ، ففى انجلترا درس ، وقام بتدريس علم الأجناس فى جامعة لندن ، واتصل بكل من يهمهم أمر بلاده .

وفى عام ١٩٤٢ تزوج إنجليزية لاتؤمن بالتفرقة العنصرية واسمها « أوناجريس كلارك » وحينما عاد إلى بلاده عام ١٩٤٦ رأى الفقر الذى عم البلاد بعد مجاعة عام ١٩٤٣ ، فقد أرهق الشعب بسبب مظالم البيض ، واستيلائهم على الأراضى الصالحة للزراعة ، وفداحة الضرائب ، فالفقراء هم الذين يدفعون نفقة قلة من البيض – على حد تعبيره – هذه القلة التى لايتجاوز عددها ٤٢٠٠ غاصب ، والتى لا تهتم

بشيء قدر اهتمامها بتجميد أرزاق ودموع الكينيين في بنوكهم البعيدة .

والذى يزور هذه البلاد يرى أن جميع المرافق الكينية قد أهملت إهمالا متعمداً إهمالا يحول كل المشاعر الطيبة فى الإنسان إلى مشاعر حاقدة على صانعى المأساة . ولنأخذ مثلا واحدا على المواصلات ذكره جون جنتر فهو يقول « قد ظل البريطانيون فى كينيا خمسين سنة ، ومع ذلك فإن طرقها تتفوق فى رداءتها على طرق صحراء التبت ، وبعض هذه الطرق أسوأ من طرق غرب أمريكا قبل اختراع السيارات . » .

ومهما يكن من شيء فقد كان للمد الثورى الذى عم البلاد بعد الحرب العالمية الثانية ، ونضوج الوعى التحررى أثر كبير فى تحول البلاد عن الهدوء والصمت إلى الإصرار والمقاومة ، فقد استحالوا جميعا إلى حقد غاضب ، ورمح مشتعل ، وغابة تتوعد .

وهكذا تجمعت العزائم الكينية فى تكتلات عنيفة قامت بها الحركات الثورية هناك فأصبح لها نشيد يرعد ، وقسم يوفى به ، ونظام ينتقم للمظلومين ، فقد أصبح الشعار هناك « لن نلقى السلاح حتى نسترد أرضنا من الرجل الأبيض » .

وبذا أصبح من أهم أغراض هذه الحركة التحررية أن تصبح كينيا للكينيين ، وأن يعيش كل مواطن فى حرية وسلام ، ويمكن أن نلمح هذا الإصرار الرائع فى قسمهم الذى يقول « ليقتلنى هذا القسم إذا ارتكبت عملا من أعمال الخيانة أو شهدت على عضو فى الجمعية ، وليقتلنى هذا القسم إذا دعتنى الجمعية ولم ألب النداء ، وليقتلنى هذا القسم إذا لم أؤيد زعماء الجمعية فى أية قضية قانونية ، وليقتلنى هذا القسم إذا بعت بيت « مومبى » (قبيلة كيكويو) ، أو هذه الجمعية ، وليقتلنى هذا القسم إذا بعت أرضى لأحد غير بيت « مومبى » ولتذهب نفسى شعاعا ، وليقتلنى هذا القسم إن أفشيت سر الجمعية . »

ورغم أن الاستعمار حكم على « جومو كنياتا » بالأشغال لمدة سبع سنوات إلا أن الشعلة التى رفعها لا تزال مرفوعة على الظلام .

لقد قال مستر هكسلى « إن الشىء الوحيد الذى قامت به بريطانيا فى كينيا هو أنها جعلت من حياة الفلاح جحيما لا يطاق ، إذ يملك السكان البيض. وهم البريطانيون وعددهم نحو ثلاثين ألف نسمة كل الأراضى الزراعية فى حين أن سكان كينيا وهم خمسة ملايين لا يملكون شيئاً »

ولكن هذه الأرض سترد إلى شعب « جوموكنياتا » ، وستغرس الرماح الكينية كالأعلام — والرماح هى أعلام إفريقية — حول هذا الوطن الكبير ، ولن يتحدث الشيوخ مرة ثانية عن أرضهم بعيونهم الدامعة بفضل رجل فى كينيا عاش مرارة بلاده ، وأوجاعها ، وضياعها ، وصورها فى قصة « الفيل » التى رمز بها إلى الاستعمار ، وفى كتابه « كينيا أرض الصراع » .

ولقد وقع ظلم على هذا الرجل — كما لم يقع من قبل على مثله — فقد أهدروا حريته ، وصادروا حياته ، ولفقوا له قضية كاذبة ، ولقد أعيدت هذه القضية ثانية فى عام ١٩٦٠ ، وحين استدعى هذا الزعيم لسماع شهادته من جديد ، بعد أن اعترف « ماشيار » (شاهد الإثبات) أن البريطانيين حرضوه ليشهد ضد الزعيم الكينى فى تلك القضية التى حكم عليه فيها بالسجن سبع سنوات .

وقد عقدوا جلسات المحكمة فى « كيتال » التى تبعد عن نيروبى ٢٠٠ ميل حتى لايرى الشعب زعيمه وهو فى شموخه رغم الحديد الذى فى يديه ، والإصرار الذى يكسو وجهه ، ولكن الشعب كله تحول إلى عواطف قوية أحاطت بالزعيم وهو يخترق باب السجن وهو يُحشد فى عربة ، وهو يضغط فى قضبان .

وقد أحس الزعيم هذه العواطف وباركها ، أحس عواطف قبيلة «الكيكويو» وهى تنعقد فوق رأسه كغار ، وشعر بنسمات « الأرض العالية » التى كانت يوما

لأسرته ثم اغتصبها البيض ، وعانق حزن الرجال السود المكدودين الذين يضربون الأرض الصلبة فى عناد ، وهم يغنون أغنية تدور حول عودة الزعيم والتى تقول :

« . . وحينما تعود يا جوموكنياتا

يا من يدل اسمك على الحربة الملتهبة

ستزدهر حقول الكاكاو ، وتتمايل أشجار البن

وترتفع أشجار الموز إلى أعلى رغم ما يثقلها من ثمار

. . وحينما تعود يا جوموكنياتا

ستنام العيون المفتوحة بعد أن تكون قد ضمت أهدابها على كينيا !

ومن سيموت قبل أن يراك

فسيلقن أغنية عودتك إلى طفله

يا جوموكنياتا »

وقد أحس الزعيم فى معتقله بكل هذا فإذا بوجهه يصفو ، وملامحه الصلبة تلين . وإذا به شىء كبير كالوطن ، قوى كالشعب ، عنيد كإفريقية .

وإذا به يشعر أنه هو الذى يحاكم المستعمرين فى بلاده ، وأنه هو الذى يضعهم خلف القضبان ، ويطردهم من « الأرض العالية » ، وأنه لم يبق لهم فى بلاده إلا صيحة أمام رمح ، وصرخة تجاه حربة !

. . ورغم أن الإنجليز قد حكموا بنفيه إلى مكان بعيد فى أطراف كينيا ، إلا أنهم يحسون بخطواته قادمة تزلزلهم ، ومن هنا يتحسرون ، ويتضاءلون كلما اقتربت هذه الخطوات التى توقع فى كل صدى أنه لا مكان فى إفريقية لغير الإفريقيين .

وفى يوم ١٤ من أغسطس عام ١٩٦١ أطلق سراح « جوموكنياتا » فارتفعت قامات الكينيين حتى فاقت فى الطول رماحهم . . بل لقد شمخت كل جباه الإفريقيين ،

فقد رأى فيه الابن أباه ، والشاب مَثله الأعلى، والشيخ زميلا له على دروب الـكفاح . بل إن العالم كله ينظر إليه فى تقدير وإعجاب ، فالشاعر يرى فيه الطاقة الفنية الهائلة بقصيدته « وسادة الأدغال » والقصصى يرى فيه الرجل الذى يضع الفن فى خدمة الحياة حين يقرأ له قصة « الفيل » ، أما العلماء والثوريون فيقفون له إجلالا كلما رجعوا إلى كتابه فى مواجهة جبل كينيا ، وكينيا أرض الصراع .

لقد قال « نيريرى » رئيس وزراء تنجانيقا : إن الحرية فى شرق إفريقية تتوقف على عودة الزعيم « كنياتا » ونحن نقول إن الحرية فى الأجزاء التى لم تحرر بعد فى إفريقية ستتوقف إلى حد كبير على دور هذا الزعيم بعد عودته إلى كينيا . ـ إلى كل إفريقية !



هناك فى غرب إفريقية يتألق عملاق عظيم كالوسام على صدر القارة ، عملاق نبع من قلب القاعدة الشعبية الجماهيرية ، فهو فى صموده وإصراره ، وتألقه يحمل معه أفراحها وأوجاعها ، ونظرتها البعيدة إلى غد مشرق سعيد .

فهو بحق قد وهب أيامه للشعب ، وإخلاصه للحياة ، ومن هنا فلم يحمل اسما خاصا به يجسده ، ويظهره فرديا ، وإنما حمل فى أمانة وشرف اسم قريته الحبيبة « نكرو » بالإضافة إلى الزمن القوى الجبار . . إلى « يوم السبت » فمعنى يوم السبت فى اللغة الوطنية « كوامى » ، ومن هنا تكوّن اسم بطلنا الإفريقى « كوامى نكروما »

هذا الرجل الذى يدق كالقلب فى قلب إفريقية العظمى ، فى قلب « غانة » ، فقد ولد عام ١٩٠٩ فى قرية « نكرو » الفقيرة فى الوطن الغانى الكبير ، هذا الوطن الذى تبلغ مساحته ٩٢,٠٠٠ ميل مربع ، ويزيد عدد سكانه على خمسة ملايين ، ومن هذا الوطن حمل « كوامى نكروما » أيامه يوما بعد يوم ، وموقفا بعد موقف لبلاده الفقيرة ، وشعبه الطيب .

وإذا كان قد أخذ من قريته سخاء أشجار « الكاكاو » ، ومن الزمن عمقه ،

وجديته ، فإنه قد اكتسب صفة أخرى بالوراثة . وهذه الصفة هى الصلابة ، فقد كان أبوه حدادا فقيرا يطوع الحديد بيديه فإذا هو لين ، ويطوعه بأفكاره فإذا هو بلطة أو فأس ، أو شيء آخر يدق الأرض فى إصرار ، كما كانت أمه تدير متجرا صغيرا لتساعد زوجها الحداد الفقير فى توفير الرزق ، ومن خلال هذه الطبقة الكادحة نشأ « كوامى نكروما» خصبا كالقرية ، قويا كالزمن ، صلبا كالحديد ، مفيدا كالمتجر . على أنه قد عُرف بالذكاء المتوهج من صغره ، والطيبة الرقيقة الحانية ، ومن هنا فلم يضن عليه أهله الفقراء بالتعليم ، فنظروا شمالا ويمينا يتحسسون له مدرسة تحمل تقاليد بلادهم ، وأمجادها . فقد كانت من قبل مهدا لحضارة عظيمة . . وإن كان المستعمرون قد أطلقوا عليها بعد ذلك اسم « ساحل الذهب » ، ولما لم يجدوا شيئا من هذا أدخلوه على خوف مدارس الإرساليات الكاثوليكية ، وقد اجتاز مراحلها بتفوق ، ووصل بتفوقه هذا إلى القيام بعملية التدريس فى نفس المدرسة التى كان من قبل يدخلها فى خوف وحذر !

على أن شيئا جديدا لم يطرأ على حياته ، فما زال كما هو فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، بل كان مبالغا بعض الشيء فى هذا التقشف الذى كان يسيطر على حياته وهو تلميذ ، ليدخر من كل هذا ما يعينه على التعليم العالى ، فإذا تم له ما كان يقتطعه من نفسه توجه إلى كلية « اخيموتا » بالقرب من أكرا ، ولا يكتفى بما حصّل فى كلية « اخيموتا » وإنما يحس فى نفسه الحنين الدافق إلى منابع العلم السخية فالتعليم فى بلاده قشور ، وجمود !

ويحدث بهذا أحد أقربائه ، فيسعى له قريبه هذا حتى يلتحق بجامعة « لنكولن » إحدى جامعات الزنوج بأمريكا ، وفيها يحصل على أربع درجات علمية فى العلوم ، واللاهوت .

وفى أمريكا يلقى الاضطهاد العنصرى كما يلقى التحقير اللونى فلا يحطم هذا من

عزمه ، ولا يثير فى نفسه الحقد والكراهية ، وإنما يثير فى نفسه شيئا من العطف على هذا « المرض » الذى تعانى منه هذه البلاد ، وإنه ليبتسم بمرارة فى إحدى المرات حينما يسأل أمريكيا فى مدينة « بلتيمور » عن أحد الأمكنة التى يستطيع أن يشرب منها جرعة ماء ، فإذا بالأمريكى « المتحضر » يشير له إلى أحد الأماكن المخصصة لشرب الحيوانات .

ولعل هذا يذكرنا بما حدث بعد ذلك لوزير مالية « غانة » حين طرد من مطعم أمريكى لأنه ملون ، واضطر «أيزنهاور» للاعتذار إليه رسميا . وتمر الأيام وينتصر الشاب الإفريقى على هذه البلاد التى ذهب إليها وليس فى «جيبه» سوى عشرة جنيهات وحبه لبلاده ، والذى نراه فيها يشتغل عامل مصعد ، ثم غسال أطباق بمطعم ، وحمالا بالسكة الحديد ، ثم عاملا لطلاء السفن . . انتصر على حقدها بالحب الذى يحمله فى قلبه ، وبالقيم الشريفة التى يحملها الإنسان خاصة إذا كان هذا الإنسان من إفريقية . . من غانة .

وبعد أمريكا سافر إلى انجلترا لدراسة الاقتصاد ، وفى هذه البلاد نراه يلقى بنفسه فى تيارات السياسة فيحضر اجتماع أحد الأحزاب بلندن ، ويتحمس له ، كما يعمل مع زملائه من الإفريقيين على تحرير القارة ، والاجتماع بكل من يهمه أمرها ، وهكذا لم يضيعوا أيامهم فى العبث ، والتطلع إلى الواقع الغربى بوجه مشدوه ، وعين مستغربة ، وإنما نلاقى هذا الشاب الإفريقى ثائرا فى جمعية «اتحاد الشعوب الإفريقية» وفى عام ١٩٤٥ نراه يصبح سكرتيرا لهذا الاتحاد فى الوقت الذى كان فيه « جوموكنياتا » رئيسا لهذا الاتحاد الذى قام على أساس من تحطيم الاستعمار فى كل مكان بإفريقية ، وعلى احتقار هذا الحاجز اللونى الذى كان يقابلهم فى كل خطوة وفى كل نظرة .

وهكذا عاش « نكروما » فى مشكلات القارة ، وأوجاعها ، وكم حنا عليها

وهدهدها بين نفسه ، فقد شاهدها تذل فى بلاده من الإنجليز ، وشاهدها تذل فى أسفاره خارج القارة ، فقد كانت تحتقر فى وجهه الأسود ، وتجرحً فى ملابسه الوطنية وتجلد فى كل نظرة يرفعها فى حب وإعجاب ، فقد تقع مرة على لافته تقول « مخصص للبيض » ، وقد تقع أخرى على لافتة تقول « ممنوع دخول السود والكلاب » .

ومهما يكن من شيء فقد حددت هذه الجمعية مشكلات القارة فى نفسه ، فلما عاد إلى بلاده عام ١٩٤٧ بعد غربة دامت اثنى عشر عاما ، كانت أهداف بلاده واضحة فى نفسه ، وبشوق ودموع عانق كل شيء فى بلاده ، عانق العمال المجهدين الذين يتصببون عرقا فى المناجم ، والفلاحين الذين ينحنون على حقولهم وفوق شفاههم غناء حزين يدور حول جوعهم ورغبتهم فى الخلاص ، والحلم بالبطل الذى سيقودهم فى معارك التحرير .

عانق كل شيء حتى الفقر والألم والدموع ، فبلاده كانت قد استحالت إلى مأساة دامعة ، وما كان ليضيع الوقت فى الاجتماعات ، والاحتجاجات ، ورفع المذكرات ، وإنما نراه وهو الذى فهم الانجليز جيدا يقود الشعب إلى ثورة جارفة ضد ممتلكات الأوروبيين ، وحقا لقد آتت هذه الثورة العارمة ثمارها بنفس السرعة التى قامت بها ، فقد هبت بعد عودته بشهرين ، وأمام هذه الثورة وافق الانجليز على إشراك أهل البلاد فى الحكم بعد أن أودعوه السجن فى بلاده .

وما كاد يخرج من السجن حتى رأيناه يؤسس « حزب الشعب » ، ويجعل أول هدف من أهدافه هو « الحرية » ، ويلجأ الانجليز إلى سلاحهم المعروف . سلاح المفاوضات ، ومحاولة تفتيت الجبهة الوطنية فلا يلاقون منه إلا إصراراً وعنادا ، ويعود مرة أخرى إلى سياسته التى تقوم على رد الفعل السريع ، فيقطع المفاوضات ، ويلجأ إلى سلاح « المقاومة السلبية والعصيان المدنى » ، وتلجأ انجلترا هى الأخرى ثانية إلى سلاحها الفاشل فتحكم عليه بالسجن سنتين عام ١٩٥٠

وما تكاد تضمه قضبان السجن حتى يتحول إلى أسطورة فى ذهن الشعب الغانى، فهو « قصة » فى الشمال المتاخم لإفريقية الغربية التى كانت تسمى بالفرنسية ، وهو « موال » فى الشرق القريب من « نيجيريا » ، وهو « ملحمة » فى الغرب المطل على ساحل العاج ، وهو « أغنية » رقيقة حالة فى الجنوب المتكىء على المحيط الهندى .

ويجىء موعد الانتخابات فيفوز حزبه بالأغلبية الساحقة رغم وجوده فى السجن ذلك لأنه كان رغم القضبان فى كل مكان بغانة . . كان فى قلب عمال المناجم وهم يسلمون الماس والذهب إلى الأجانب ، وكان فى إطراق الفلاحين وهم يجمعون لغيرهم أشجار الكاكاو ، وكان فى ذهن كل مواطن وهو يجر عينيه فى حنق على الوجوه الأجنبية ، ويصله نبأ انتصار حزبه الساحق وهو فى سجنه ، أو بعبارة أدق فى « حريته ! » لأنه رغم القضبان كان سجانا لكل أعداء الشعب .. يصله هذا النبأ فيزداد إيمانه بالشعب ، وبالحياة ، وإن الدموع لتنحدر من عينيه حين يرى فى استقباله على باب السجن ١٠٠٫٠٠٠ مواطن غانى ، ويتلقفه كل شىء فى غانة بالحب ، والشوق ، والإيمان برسالته ، وما يزال يعمل مستلهما آمال شعبه وأوجاعه حتى يصل به إلى اليوم السادس من شهر مارس عام ١٩٥٧ ، ثم يعلن ميلاد دولة جديدة داخل دول « الكومنولث »

ومنذ تولى الحكم وهو يعمل بإخلاص وحب لبلاده ، ويحقق انتصارا بعد انتصار ، فنراه يرسم قواعد الديمقراطية البرلمانية فى بلاده التى تنقسم إلى خمسة أقسام ، ويدعم اقتصادها حتى يصل به إلى ما يقرب من ٢٥٠ مليونا من الجنيهات ، وفى الوقت نفسه يتوجه بحماس إلى التعليم ، وإلى الزراعة ، والصناعة ، وأخيرا إلى تأكيد الشخصية الإفريقية ، والدعوة إلى نظام الولايات ، ومساندة كل الحركات التحررية فى القارة .

وهو فى الوقت نفسه يعمل على تحصين بلاده داخليا وخارجيا ، كما يقول

جون جنتر «..إن لحركة نكروما ثلاثةأوجه:أولها ثورة الشباب ضد الجيل القديم ، والثانى ثورة الشعب ضد الرؤساء المحليين الذين نالوا سلطتهم بالإقطاع ، وفى ظل النظام القبلى ، والثالث ثورة الوطنيين ضد الاستعمار »

ويمكن أن نصل إلىأعماقه فىخطبته التى ألقاها فى المجلس التشريعى عام١٩٥٦ والتى قال فيها : « ليكن هدفنا فى كل نقاش الإقناع العقلى ، والإسهام فى البناء متوخين فى ذلك مصلحة الأمة لامصلحة القبيلة أو الطائفة . إن بلادنا تتمتع بمجتمع مستقر ، وباقتصاد سليم ، وإمكانيات عظيمة ، وليس عندنا التعصب الدينى أو العنصرى أو القبلى لأن تراثنا الاجتماعى يتنافر مع كل هذا ، ولقد استطاع أجدادنا منذ قرون سحيقة أن يقيموا إمبراطورية عظيمه قبل أن تكون لبريطانيا أية أهمية فى الوجود ، وقد ظلت هذه الإمبراطورية مزدهرة ، ومظللة بأجواء الحضارة من « تمبكتو » إلى « باماكو » إلى شاطىء المحيط .

إمبراطورية احترمت العلم ، وغصت بالفقهاء ، ومن حولهم كان يرفل شعب « غانة » فى المخمل ، والحرير ، وفيما تصنعه يداه من الذهب ، والفضة ، والنحاس ، هذا مايجعلنانزهو باسم بلادنا العريقة التى ستظل دائما مصدرا لإلهامنا ، وبما سنقدمه فى الحاضر الذى تتجمع روافده فى الماضى ، ذلك لأن هذا الماضى لايخجلنا ، وإنما يشع من حولنا بالثقة ، ويغمرنا بروح السلام ، والموادعة ، فمن واجبنا حينئذ أن ننحنى فى احترام لهؤلاء الأجداد الذى وضعوا لنا أسس النضج الاجتماعى ، وقواعد تقاليدنا القومية .

ونحن فى الوقت نفسه بشر قدارتكبنا وسنرتكب كثيرا من الأخطاء ، ولكننا سنستفيد قطعا من هذه الأخطاء ، ومن كل أخطاء غيرنا عبر التقدم الحضارى ، على أن مانقع فيه من خطأ يعنينا وحدنا » .

فنكروما هنا لايتوارى من ماضيه ، وإنما يفخر به ، ويستلهمه وهو يسير ببلاده التى كان تحررها نقطة ضوئية مبكرة أضاءت الدروب الدامية للمتحفزين للمعارك من حوله والخائضين برماحهم فى أعماق المستعمرين .

وتمر الأيام فإذا بهذه البلاد تؤمن بالكيان الإفريقى الموحد ، وتحتضن مؤتمرات الحرية فى « أكرا » ، وتعمل على الاتحاد مع غينيا ، ومالى ، وتصادر الأموال الفرنسية احتجاجا على التجارب الذرية ، وتدعو إلى الجيش الإفريقى ، وتقابل الدعوى العنصرية التى قامت فى انجلترا تطالب « بمحو السواد عن وجه بريطانيا الأبيض » بدعوى أخرى تطالب « بمحو البياض عن وجه إفريقية الأسود »

ثم نراها تتوج انتصاراتها بما أعلنته فى دستورها الجديد بأن من حق حكومات غانة المقبلة أن تقرر إيجاد علاقات اتحاد أووحدة مع أية دولة إفريقية أخرى ، ونرى زعيمها يوثق صلاته بكل الرؤساء الوطنيين فى إفريقية ، ويسارع إلى مؤتمر الدار البيضاء ، ويعلن دائمـا أن استقلال بلاده ناقص ما لم يظلل القارة علـم كبير هو علم الحرية .

وهكذا نرى هذه الدولة الشابة — من خلال رئيس جمهوريتها — تسهم فى تصميم خريطة الحرية الشاملة لكل إفريقية فى حاضرها الثورى ، ومستقبلها العظيم .

فقد مضى زمن إفريقية المشتتة التى كان يخضع فيها الأب لتشكيل فرنسى ، والابن لتشكيل انجليزى ، وبقية الأسرة الواحدة لتشكيلات تتراوح بين القوى البلجيكية ، والبرتغالية ، والأسبانية .

لقد كانت « غانة » فى الغرب وساما ثوريا على صدر القـارة الإفريقية ، وعلى صدر « غـانة » نرى « كوامى نـكروما » يستقر كوسام آخر للحرية والانتصار الإفريقى .





يعتبر شمال وغرب إفريقية من أهم المناطق التى وقعت تحت النفوذ الفرنسى ، فبالرغم من أن هذا النفوذ يقوم على سياسة ناعمة فى مظهرها — كعملية الإدماج فى فرنسا الأم ، وضعف حواجز الجنس ، وتمثيل الإفريقيين فى الجمعية الوطنية الفرنسية ومجلس الشيوخ — رغم هذا نرى السياسة الفرنسية تتداعى فى « الشمال » لقربه من مراكز التحرر العربى ، وفى الغرب لهذا الوعى الجديد الذى أخذ يعم القارة ، وكان من ثمار هذا تحرر هذه الجمهورية الغينية التى تبلغ مساحتها ١٠٥٫٠٠٠ من الأميال المربعة ، ويبلغ شعبها ثلاثة ملايين نسمة وتتغطى حقولها الخصبة بالأرز والبن والأناناس ، والمطاط ، والدخان ، وتغص مناجمها بالذهب ، والماس ، والبوكسيت وإن كان أكثر هذه الثروات قد استنزف ، وجمد فى بنوك فرنسا ، وأصبح نضارة هناك فى وجه الطفل ، وحماسا فى روح الشاب ، ونعيما فى ضمير الرجال ، فمنذ أن وقعت هذه البلاد كفريسة فى يد الحكم الفرنسى ، بعد أن كانت فى يد الحاج « عمرتال » أحد المرابطين من قبيلة الفوله . وفى يد ابنيه من بعده فى نهاية القرن التاسع عشر . . منذ سقوط هذا الحكم الإسلامى ، وفرنسا تمتص هذه البلاد لصالحها .

وعلى الرغم من هذا فقد بقيت فى غينيا ثروة أخرى جبارة لم تستطع فرنسا

استنزافها ، أو النيل منها لأنها كانت الشعب نفسه بصلابته ، وإصراره ، وعزمه على اقتلاع الاستعمار ، وضم بلاده مرة ثانية إلى صدره .

ومازالت هذه الرغبات تتلاقى ، وتتجمع حتى تجسَّدت أخيرا في «سيكوتورى» الذى نبت من أشد الطبقات إحساساً بالحرية ، وتقديرا لها . . من طبقة البسطاء الذين يقع عليهم العبء دائما من المستعمرين والحكام .

ومن خلال هذه الطبقة عرف « سيكوتورى » كيف يجاهد بمشقة ليوفر لنفسه اللقمة الخشنة ، والثوب الغليظ ، والذهاب إلى المدرسة ، ولكنه رغم فقره عرف كيف يجمع الشباب من حوله ، فلا أمل للحرية فى غرب القارة إلا بالشباب على حد تعبير كيسلى هالفورد « إن مستقبل غرب إفريقية يتطلب من الشباب هناك أن يبدأ الحياة وله غرض واضح معين ، ونحن على يقين من أن شباب المنطقة يزخر بالعقول المبكرة ، والأيدى الماهرة فى الحرف ، والمهن الآلية ، ولا تنقصه سوى القوى التى توجهه نحو الهدف الصحيح » .

ومن هنا كان دور « سيكوتورى » الذى حشد هذه القوى ، وجمعها ، ووضعها وجها لوجه أمام مشكلاتها ، وأمام الاستعمار نفسه ، وبهذا كون منهم جبهة صلبة متعادية مع الاستعمار ، ولا بدَّ لها من الاصطدام به .

ولم يقف «سيكوتورى» عند هذه القوة فقط ، وإنما عمل على خلق ركيزة أخرى من العمال لمساندة الحركة الوطنية ، فاندمج معهم ، وأدخل فى قلوبهم الفهم الصحيح للوطنية الإفريقية ، وأن من حقهم أن يعيشوا فى الحرية ، وأن يستمتعوا ببلادهم سماء وأرضا ، وأن يأخذوا ما يقابل إنتاجهم . . أى ما يقابل « السرقة منهم» إذا أن جهدهم وعرقهم ، ومستقبلهم يصدّر دائما إلى فرنسا ليحيا عليها هناك أناس غرباء عنهم ، وعن كل إفريقية .

وفى ضوء هذه الحقيقة نراه يسهم فى تكوين نقابات تدافع عنهم ، وتجعل

ساعات العمل متفقة مع قدراتهم ، كما تمسك عليهم حياتهم التى يقفزون إلى نهايتها سريعا ، بما يحملون من مرض ، وتعب ، وجهد فوق الطاقة البشرية .

وبفضل هاتين الركيزتين خلق لنفسه ثقلا سياسيا فى بلاده دفعه لتمثيلها فى مجلس الشيوخ الفرنسى ، ودفعه إلى تكوين « حزب غينيا الديمقراطى » الذى أعلن أنه ليس تشكيلا سياسيا بقدر ما هو حركة قومية مفتوحة الذراعين لكل الشعب ، وقد أكد هذا الحزب الذات الغينية حينما نراه يقف وحده فى الميدان السياسى هناك فبقدر ما هو تنظيم سياسى نراه وعيا جماهيريا يسير بالشعب إلى إنجاز برامج الحرية ، والتنمية فى ظلال المصلحة العامة ، فالحزب هناك لا يقف منعزلا عن الشعب ، وإنما هو الشعب بقواه ، ورغبته فى دفع البلاد إلى الترقى ، والحصول على مكاسب تتجد كل يوم ، ونحن نراه يقول عن هذا الحزب « لقد قدمنا لكم هذا الحزب منذ اثنى عشر عاما مضت ، قدمناه حين قدمناه بذرة ، وقلنا لكم فى هذا الحين إن هذه البذرة يجب أن تجد الظروف الملائمة للنمو ، والإخصاب ، والإنتاج الغزير ، وقلنا أيضا ، إن نظام الاستغلال الذى أوجده المستعمرون لم يضعف الشعب إذا كان سيستمد منه وعيا باليقظة الجديدة .

إننا سنضع بذرتنا هذه فى أيدى الشعب ، وسنطلب من الشباب أن يتسلح بالنبال ليدافع عن هذه البذرة التى ستتحول إلى شجرة ، حتى لا تستطيع الطيور الجارحة أن تسقط عنها ثمارها ، وأوراقها ، ونضارتها ، كما طلبنا من جميع النساء أن يجلبن الماء صباحا ومساء حتى لا تذبل هذه الشجرة .

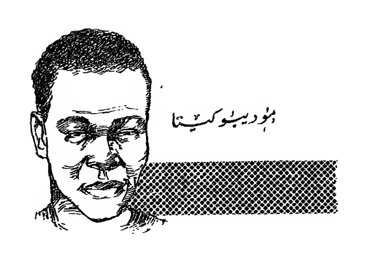
واليوم قد ارتفت الشجرة وهأنا أرى من حولها العمال ، والفلاحين ، وكل الرجال ، والنساء : على أناقلنا لأعضاء الحزب وقادته إن هذه الشجرة ملك للأجيال القادمة ، فقد يموتون وهم يحفظونها ، وقد يموتون قبل أن يروا الثمار ، وتقع أيديهم على واحدة منها . ولكن رغم كل شىء فهذه الشجرة مثل « الحق » لابد أن يبقى .

وقد أزعج النمو الجديد فرنسا ، فذهب « ديجول » إلى هناك ليضعف من هذه السياسة التحررية ، فإذا بالعاصمة « كونا كرى » تطالبه بالعودة إلى بلاده ، وتصرخ فى وجهه بحياة «سيكوتورى » ويأتى دور سيكوتورى فيجمع هذه الصرخات من الشعب ثم يهتف « إننا نفضل الحرية مع الجوع على الرفاهية فى ظل العبودية » حتى لقد كتبت « الموند » الفرنسية تقول « لقد شهدت كونا كرى عاصمة غينيا مشهدا لا ينسى لرجلين مختلفين يمثل كل منهما حضارة مختلفة عن الأخرى ، ولحظتين متباينتين من التاريخ ، أما أحدهما فكان عاصفا ثائرا يهدر فى خطابه كالموج العنيف ، وأما الثانى فكان شاحبا متعبا ، كأنه غير مكترث لما يسمعه أو حتى لما يقوله » .

ثم نرى هذا الزعيم يخطو ببلاده خطوات أكيدة ، فيربط بين التعليم والعقلية الثورية فى بلاده ، ويوازن بين اقتصاديات البلاد ويخلق لها مخططا جديدا يتفق وثرواتها ، ويدفع بالمرأة إلى ميادين الحياة العامة ، وفى خارج بلاده نراه ينادى بنظام الاتحاد الإفريقى ، ويمد يده إلى نكروما وموديبو كيتا فى اتحاد يرفع من مستوى القارة فى الغرب ، ويقف وراء كل حركات التحرر فى القارة مساندا ومؤيدا .

وكل هذه الخطوات الجبارة جعلت من بلاده « قمة النور » التى يسير فى ضوئها المكافحون ، وما زال يحمل إلى اليوم راية الحرية لكل إفريقية بيد قوية ، ووجه صلب ، ويبشر دائما « بالوحدة الإفريقية » ، ويسارع إلى مساندة المخوضين برماحهم فى أعماق المستعمرين ، والمتربصين فى إصرار لانتزاع بلادهم من القبضات الشريرة .

فقد عاش لا ينطوى فى حياته إلا على شىء كبير جدا هو « إفريقية »



فى السابع عشر من يناير عام ١٩٠٩ ، أخذ يرتفع علم جديد يعلن وحدة السودان الفرنسى والسنغال ، وإدماجهما فى جمهورية واحدة هى جمهورية « مالى » وحينما استوى هذا العلم خفاقا جليلا فى قلب السماء أخذت الذكريات تدور ، وتحوم كأسراب من الطيور الجميلة ، وفى وسط الجموع ارتفعت قامة ، وتألقت جبهة فخيل للافريقيين أنهما سارية وعلم ، وحقا لقد كانا علم الحرية الكبير . . كانا « موديبوكيتا »

وما أكثر ما تدافعت الذكريات — فى هذا اليوم — إلى ذهن هذا الشاب العظيم فقد انتقل من بلاده التى تحدها برنو شرقا ، والمحيط الأطلسى غربا ، والجزائر شمالا ، ونيجيريا وداهومى وغانة وساحل العاج وليبيريا وسيراليون جنوبا انتقل من كل هذا إلى.. مملكة «مالى» القديمة المترامية الأطراف والتى كانت تعتبر من أوفر الدول غنى فى السودان الغربى ، والتى توافرت فيها الرفاهية للشعب ، وازدهت « بتمبكتو » التى كانت تعتبر « الماسة » الضخمة التى تشع بتعاليم الإسلام ، والتى فى ضوئها رفع الناس وجوههم إلى السماء ، وإلى الحقيقة . . ذلك لأن هذه الدولة كانت الأمل المضىء الذى تعلقت به القلوب المؤمنة بعد زوال دولة المرابطين !

فقد انتشر فيها الإسلام بفضل الدعاة والتجار الذين وفدوا إليها من الشمال الإفريقي ، بحيث لم يمر وقت طويل حتى كانت هي الأخرى طاقة مشعة تبعث بالنور ، والطمأنينة هنا وهناك !

ومرت على فم « موديبوكيتا » بسمة وهو يستعرض فى ذهنه مواكب الحج التى اشتهرت بها هذه البلاد ، وبخاصة مواكب الملك « منسىّ موسى » التى كانت تغطى الأرض بالجند ، والسماء بالتكبير ، وكيف كان الناس يسارعون إلى الدخول فى الإسلام ، ويضعون فى أرجل أبنائهم الحديد حتى يحفظوا القرآن ، فإذا ما تم لهم حفظه رفع عن أرجلهم الحديد ، وعن نفوسهم الظلام .

ولكن الابتسامة سرعان ما تغرب عن وجه « موديبوكيتا » وهو يرى كل هذا المجد يتوارى ، وبلاده تتساقط فى أيدى الفرنسيين ، ثم تتفتت إلى ما سمى بالسودان الفرنسى ، والسنغال ، وداهومى ، وفولتا العليا .

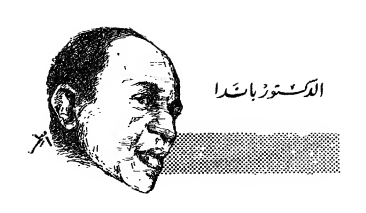
ويسرع شريط الذكرى فى ذهنه فإذا به يرى نفسه غريبا فى بلاده ، ومضيعا حتى إذاما تم له قسط من التعليم رأى نفسه يعمل مدرسا ، ثم ينخرط فى سلك السياسة فيدخل فى حزب « الاتحاد السودانى القومى » وإذا به يلمع ، ويصبح عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، ثم وزيرا فى بلاده مرتين ، ثم نائبا للرئيس ، وما تكاد تجتمع فى يده الخيوط القيادية حتى نراه يفكر فى إحياء دولة مالى القديمة ، وإذا به يجتمع مع ممثلى السنغال وداهومى ، وفولتا العليا فى « باماكو » ، ثم يطلب منهم أن يندمجوا جميعا فى كيانهم القديم ، ولكن ممثلى داهومى وفولتا العليا يأخذان عليه حماسه ويخشيان السير فى هذا التيار الجديد ، وإذا بهما ينصرفان عن هذه الدعوة ، ولكنه مايكاد يرى أملا مترددا فى عين ممثل السنغال حتى يسارع فيؤكد له أنه لا ضمان للحرية فى بلادهما إلا بالاتحاد ، وتنجح هذه الفكرة ، ويزف إلى العالم ميلاد « اتحاد مالى » من جديد ! ويصبح رئيسه .

وبزعج هذا الحماس ، وهذا الفهم العميق الفرنسيين فإذا بهم يدعون «محمدضياء» رئيس وزراء الاتحاد إلى فرنسا ، ويتفقون معه على تصفية الوحدة ، وما يكاد يعود حتى يعلن انفصال السنغال عن هذا الاتحاد الجديد ، وعن رئاسة « موديبوكيتا » .

ثم يسارع الفرنسيون فيحاصرون البلاد اقتصاديا وسياسيا ، ويحسب الفرنسيون أنهم أخمدوا هذه الطاقة التحررية الجديدة ، وحاصروها مع الأربعة ملايين الذين يعيشون على رقعة تقدر مساحتها : ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ك م ولكنهم يروّعون حينما يرونه يلتقى بسيكوتورى ، وكوامى نكروما ، ويتفقون على قيام اتحاد بينهم يجعلهم القوى الحقيقية فى غرب القارة ، ثم إذا بهم جميعا القوى الحقيقية لغرب القارة فى مؤتمر الدار البيضاء .

وهكذا نرى « موديبوكيتا » يحطم الستار المضروب حوله ، ويلتقى معَ أكثر من دولة محبه للسلام ، ولقد كانت الجمهورية العربية المتحدة من هذه الدول التى التقت مع وفده أخيرا فى اتفاقية تجارية ، وثقافية ..

والزمن كفيل بأن تصبح هذه البلاد هى « الدولة الأم » ، وبأن يعود الأبناء الغاضبون إلى صدرها ، فتتحقق بذلك كلمة المؤرخ القديم «ابن خرداذبة» فى مسالك الأبصار من أن مالى مملكة إسلامية كبيرة طولها أربعة أشهر وعرضها أربعة أشهر !



سعدت إفريقية فى السنوات الأخيرة باكتشاف منجم جديد فى القارة الإفريقية ، منجم يتوهج بكنوز الشعب ، ويتألق بأعماقه ، ويدوى بقواه ، ذلك لأن هذا النوع من المناجم لم يستطع الاستعمار التنقيب عنه ، واستنزاف مقوماته لأنه «منجم بشرى» من هذه المناجم التى لاتتفتح إلا على أيدى الشعب ، حينما يتجمع شوقه ، ويزداد حنينه إلى الحرية ، والنور ، والغد .

ولقد عاش شعب « نياسالاند » فترة طويلة ، وهو يبحث عن الرجل القوى الذى يستطيع حمل مشاعر مليونين ونصف ميلون من السكان وأشواق وطن استبيحت كرامته بحيلة بريطانية وضيعة ، ذلك لأن « سيسل رودس » حينما قرأ نبأ اكتشافها على يد الرحالة لفنجستون عام ١٨٥٩ ، وحينما رأى الطرق إليها تغص بأقدام المبشرين ، وأنه قد تمكن من عقد اتفاقية عام ١٨٨٨ مع ملك روديسيا الإفريقى « لوبنجيولا » ، ووضع مصيرها فى يديه حتى لقد تسمت باسمه فأصبحت روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية . . حينما رأى ذلك فكر فى ضم نياسالاند إلى الحماية البريطانية ، وكان أن أرسل « هارى جونستون » عام ١٨٨٩ إلى هذه البلاد بعد أن زوده بمبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيه وذكر له أن هذا المبلغ هو ثمن هذه البلاد .

وقد نجح « هارى جونستون » فى إغراء رؤساء القبائل ، وزين لهم قبول الحماية البريطانية ، ورجع إلى « رودس » وهو يحمل بين يديه صكوك الحماية بين

الملكة « فيكتوريا » والرؤساء فى هذه المناطق ، ومساحة قدرها ٣٦,٨٢٩ ميلا مربعا يقع أكثرها على الشواطئ الغربية والجنوبية لبحيرة نياسا التى تسمت باسمها ، وامتدادا أخضر مزينا بأشجار القطن ، والقمح ، والدخان ، والأرز ، والشاى ، وإلى جانب كل هذا حمل « هارى جونستون » إلى « رودس » قلب هذا الشعب الإفريقى وهو ينزف بالدم ، ويتلوى من الألم !

وقد مرت فترة من الزمن وأهل هذه البلاد فى عجز تام عن المقاومة ، واستخلاص بلادهم من القبضة الإنجليزية ، حتى كان جيل جديد من الشباب أدار النظر فيما حوله فإذا به يحس بالضيق ، وبالألم ، وإذا به ينسج فى بطء وحذر كلمة « أوفولو » التى تدل فى لغتهم « النيانجية » على الحرية !

وكأنما أحس البريطانيون بوميض هذه الكلمة فى عيون الشعب ، فنراهم فى عام ١٩٥٣ يعملون على ربطه بمصير روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية فى اتحاد يسمى « اتحاد وسط إفريقية الفيدرالى » لأن الوعى السياسى معدوم فى هذين البلدين ولأن قبضتهم محكمة على مصير كل شىء هناك .

وكان أن قامت فى « نياسالاند » معارضة قوية لهذا الاتحاد ، وكان أن جمع هذا الشعب الفقير مبلغ ١٩٦٧ جنيها ، وأرسل وفدا ليتحدث باسمه فى انجلترا ، ويسافر الوفد ، ولكن الملكة « اليزابيث » ترفض مقابلته ، ويعود الوفد مغضبا إلى بلاده .

وقد أخرجت هذه الثورة من بين الصفوف زعيما شعبيا يسمى « فيليب جومانى » يدعو فى البلاد إلى فكرة « العصيان المدنى » فتضيق عليه الحكومة ، وتضطره إلى الهرب إلى « أنجولا » ولكن البرتغاليين الذين يسيطرون على هذا البلد يردونه إلى البلاد ، ويجتمعون ثم يخرجون على الناس بقرار إعدامه ، ولكنه يفوت عليهم الفرصة ، ويموت موتا طبيعيا !

وتلفت الحركة الوطنية فلا تجد الرجل الذى يمكن أن تضع فى قلبه آمالها ، وشوقها إلى الحرية ، وبينما هى فى هذه الحركة إذا بواحد يهتف باسم «هاستنجز باندا» الذى خرج من نياسالاند من ثلاثين عاما ، ثم استقر فى لندن حيث كان بيته مقصدا لقادة التحرر الإفريقى .

وتجمعت حول نفسها «نياسالاند» ، وراحت تجمع خيوط ذكرياتها عن الدكتور « هاستنجز باندا » فإذا بها تراه طفلا صغيرا يقاسى حياة خشنة مع والديه الفقيرين ، ورأته يهرب من العاصمة « زومبا » ثم يواصل السير على قدميه حتى يصل إلى اتحاد جنوب إفريقية ، حيث أقام فى « جوهانسبرج » يكدح مع إخوانه الإفريقيين فى قلب المناجم ليعطوا للمستعمرين الذهب ، وليتسلموا نقودا ضئيلة لا تكاد تمسك عليهم حياتهم ، وكثيرا ما اضطروا إلى عدم صرف هذه النقود لأن المناجم تنهال عليهم فإذا بهم يموتون وأيديهم مقفلة !

ومن الغريب أن والديه بكياه كثيرا ، واعتقدا أنه حين تغلغل فى الغابة أصبح طعاما للوحوش ، ولكن القدر كان يحتفظ به لهذه البلاد ، فنراه يقتر على نفسه فى اتحاد جنوب إفريقية رغبة منه فى مواصلة تعليمه ، وحين يجتمع له قدر ضئيل من المال نراه يغامر بالسفر إلى أمريكا حيث قضى بها اثنى عشر عاما قضى أكثرها فى دراسة الطب ، وما كان يثنيه السعى إلى الرزق عن مواصلة دراسته ، ثم نراه يلتحق بجامعة « ادنبرة » ، وأخيرا يستقر لمباشرة عمله فى ضاحية من ضواحى لندن .

ثم نراه يفتح بيته للإفريقيين هناك ، ويستعيد ذكرياته عن بلاده ، ويرفع صوته معارضا فكرة الاتحاد الفيدرالى ، ثم نراه يسافر إلى غانة ليدرس مع « كوامى نكروما » قضايا بلاده ، ويجتمع بالصحفيين ، وقد وصلت أنباء تحركه هذه إلى بلاده فإذا بهم يبرقون إليه للعودة إلى بلاده ، ويستجيب إلى هذا النداء ، وتطأ قدماه بلاده فى ١٠ يوليو من عام ١٩٥٨ .

وحين ألقوا على كتفيه فى أرض المطار معطف الزعامة التقليدى أحس أن بلاده كلها تضمه إلى قلبها فى حب وحنان . . وملأت الدموع عينيه ، ولكن حينما سلموه مكنسة وقالوا له « عليك أن تكنس الاستعمار » تحجرت الدموع ، وكست وجهه رهبة ، وملأ العزم صوته ، وهتف « لن تكون بلادكم إلا لكم ! » .

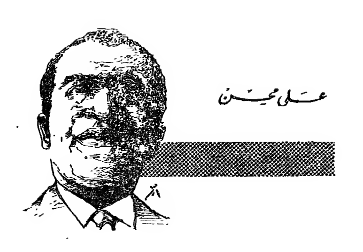
وهناك يكون حزب « المؤتمر الوطنى الإفريقى » الذى سرعان ما اتهمه الإنجليز بأنه يعد العدة لذبح البيض ، ولكن الدكتور باندا ذكر لهم أن بلاده لن تقوم بعملية الذبح هذه إلا حينما تهدد حقوق الشعب ، ولكنهم يسارعون فيلقون القبض عليه ثم ينقلونه إلى « روديسيا » الجنوبية مع مائة وخمسين من رجال الحزب .

ومن هذه النقطة تتجمع الثورة العارمة ، فإذا بالبلاد جميعها تعرض صدورها للرصاص من أجل عودة الدكتور باندا ، ويسقط الكثيرون وهم يهتفون بحرية بلادهم .

وكل ما فعلته وزارة المستعمرات إرسال لجنة للتحقيق فى هذه الجزيرة الإنسانية ، فإذا بهذه اللجنة تعلن فى ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٩ أن الإدارة الحاكمة هناك هى التى خلقت دعوى « ذبح البيض » لتتمكن من إعلان الأحكام العرفية ، ولتقبض على الدكتور باندا وزملائه ، ولتوقف نشاط حزب « المؤتمر الوطنى الإفريقى » .

وقد حسب الإنجليز أنهم باعتقالهم هذا الزعيم يستطيعون وأد الحرية فى أعماق الشعب ، ولكن طاقات الحرية تفجرت فى وجوههم ، وأعلن كل شىء هناك أنه لن يكون هناك هدوء والزعيم معتقل ، ومن هنا نراهم يقررون عودته إلى الحياة العامة ، ويخرج الزعيم وعليه آثار السجن ، وآثار الحرية ، وينتظره الشعب فى الخارج ثم يتلقفه فى صدره الأسود الكبير ، وإذا بالجميع صوت واحد يعلن أنه لن تكون للاستعمار كلمة فى هذه البلاد ، ذلك لأن كلمة كبيرة هى التى تسمع هناك وهى كلمة « أوفولو » ، وقد ازدهرت هذه الكلمة بعد أن انتصر حزب « باندا »

المسمى بالمالاى بأغلبية مقاعد المجلس التشريعى فى نياسالاند ، فقد دحر هذا الحزبُ الحزب الفيدرالى المتحد الذى يقوم على رياسته « روى ويلنسكى » رئيس الاتحاد كما سار فى الوقت نفسه خطوة أكيدة فى تأكيد الحكم الذاتى ، وفى العمل على قيام دولة متحررة تدفع بأخواتها إلى الحرية ، وإلى التجمع حول النور الذى أضاء من قلب « باندا » .



يطلقون على بلاده أن الرياح هى التى كتبت تاريخها ، فمنذ القدم والرياح الموسمية الشرقية تدفع العرب إلى هذه البلاد ، حيث كانوا يقصدونها بالرماح ، والفؤوس ، والخناجر ، والزجاج ، والقمح ، ثم ترجع مثقلة بالعاج ، وقرن الخرتيت ، وصدف السلاحف ، وزيت جوز الهند ، وما زال المتجول خلالها إلى اليوم يرى بعض هؤلاء البحارة الذين لوحتهم الشمس ، وزلزلتهم الأمواج ، وعذبتهم ذكرياتهم التى تركوها وشيكا فى عمان ، وحضرموت . فالعربى يحمل فى قلبه دائما مكانا أثيرا لنقطة التجمع الأولى ، ومهما يتجول ، ويتعمق ويبتعد يحمل فى وجدانه « جزيرة عربية ! » .

وإلى هؤلاء العرب الذين تخطوا المحيط الهندى ، وتجاوزوه إلى زنجبار يرجع النسب البعيد إلى هذا الزعيم الذى يؤكد دور الحرية فى زنجبار التى تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من الساحل الإفريقى الشرقى . والدور العظيم لهذا الرجل أنه لم يقف كظاهرة ناتئة فى هـذه البلاد تنادى باسم العرب فقط ، كما وقف الزعماء الآخرون هناك ينادون بأسماء قومياتهم ، وإنما كانت جهوده تتلاقى عند خلق الكيان الزنجبارى الموحد لهذه السلطنة التى تخضع للحماية البريطانية ، والتى قصت أطرافها حتى أصبحت ــ بعد امتدادها الكبير ــ تتكون من جزيرتى زنجبار ، وبمبا ، وبعض

الجزر الصغيرة الأخرى ، وهذا مادعا « السلطان » إلى قبول الحماية البريطانية عام ١٨٩٠ لبقاء عرشه ، والذى دعاه كذلك إلى تأجير شريط كبير يمتد على ساحل كينيا إلى الإدارة الكينية ، ولن يمنع الدموع من الانحدار ظهور علم « السلطان » الأحمر مرفوعا على هذه المنطقة ، لأن كل من يعيش فى هذه البلاد يحس بأن هذا الكيان تنقصه أعضاء كثيرة بترت منه ، وأنه هو نفسه لايحس « بالتكامل الوطنى » الذى يرى من حقه أن يعيش فى ضميره !

وسلسلة حياة هذا الزعيم ــ الذى ولد فى العاشر من يناير عام ١٩١٦ ــ تعتبر امتدادا لهذا الشعور الذى لم يفارقه فى يوم من الأيام ، ولقد دافع هذا الشعور عن نفسه بإصراره الجاد على المعرفة حتى لنراه يكون مع زملائه ــ فى المدرسة الثانوية ــ جماعة تسمى « جماعة النمل » التى جعلت من أهدافها قراءة كل مايصل إلى أيديها من ثقافة ، ثم نشر هذه الثقافة بين المواطنين . ولما كان نبع الثقافة هناك راكدا نراه يحدث والده ــ وكان معسرا فى هذه الفترة ــ على حياء بأنه يرغب فى التزود من المعرفة خارج بلاده ، وتتلاقى رغبة كل منهما فى الذهاب إلى القاهرة حيث الجامع الأزهر ، وإن كان ثمة اختلاف فى الهدف ، فقد كان « على محسن » يسمع أن الأزهر يسهم فى الأحداث فى مصر ، وأن رجالاته يديرون دفة السياسة فى البلاد ، ومن هنا كان سر إقباله على الأزهر . أما والده فقد كان يرى فيه النور الذى يجب على كل مسلم أن يسعى إليه ، وأن يغمس أهدابه فى إشراقه حتى يتطهر ، ويصبح شيئا روحانيا !

ويبيت الابن على فرحة بلقاء مصر ، أما الوالد فينام مجهدا يفكر فى توفير المال اللازم لسفر ابنه ، ويصبحان وفى عين كل منهما نظرات الوداع ، ويخرج «على» ليودع الحياة من حوله ، وبعيدا عن داره يجد الحقول التى لا تنتهى من القرنفل التى كانت قد احمرت أغلفة براعمه ، والتى أصبحت على أهبة الاستعداد ، لأن الحصاد يجب أن يتم هناك قبل أن تزهر البراعم .

وغير بعيد يرى أسرة سعيدة قد بكرت لهذا النوع من الحصاد ، فيبتسم فى نفسه للنساء والأطفال الذين كانوا يقتطفون البراعم القريبة الفروع ، وتكبر ابتسامته حينما يرى شابا يصعد على سلم ، ورجلا يتسلق جذع شجرة ليصل إلى عناقيد براعم القرنفل بوساطة عصى تنتهى بخطاف !

وتشتد حرارة الشمس فيهمّ بالرجوع إلى بيته ، ولكنه يبطىء الخطو حين يسمع أغنية تتحدث عن « جوز الهند » الذى يعتبر المحصول الثانى للبلاد بعد القرنفل ، ويصغى ، وما أشد ما كان إصغاءه لهذه الأغنية التى كانت تقول :

« يا جوز الهند
يا مرتفعا كالرجال الكبار
لست هنا فقط فى الحقول
ولكنك تحت أقدامنا الحصر ، وفى يدنا السلال
وعلى سقفنا الغطاء ، وفى إنائنا العصير
وعلى مائدتنا الطعام ، وفى جرتنا الزيت
يا جوز الهند
يا مرتفعا كالرجال الكبار
إنك فى الحبل الذى يلهو به الطفل
وفى الحبل الذى يثقل والده حين يعود
.. حين يعود إليه مغطى بالعرق ، وبين ساعديه ثمرة كده
يا جوز الهند
يا مرتفعا كالرجال الكبار ! » .

وتنتهى الأغنية فى رفق ، وحنان ، ويحس أنه يعيش قبل سفره حياة أعمق مما كان يعيش من قبل ، فعن قريب سيفارق هذه الأزقة الضيقة ، والمنازل المتقاربة .

والأبواب المزينة بالرسوم العربية ، وباعة القهوة الذين يعلنون عنها بصاجات كبيرة فى أيديهم ، و « الـكنزس »[1] ، والنساء المحجبات ، وبيت العجائب القريب من قصر السلطان ، والقلعة العربية القديمة ، والحدائق الاستوائية ، والأرض المرجانية المجدبة كما يسمونها ، ونهرى « تشم تشم » ، و « بوبوبو »

وفى الطريق يرى « على» مدرسته فيقف عندها بحنان ، ويراه الناظر الإنجليزى فيدعوه ، ثم يسأله عن مشاريعه فى المستقبل ، وحين يذكر له أنه سيكمل تعليمه فى الأزهر ، يطلب منه أن يذكر لوالده أنه سيزوره غداً ، وتتحقق الزيارة ، ثم تنتهى بكلمة غريبة على سمعه ، وهو أنه سيتخصص فى التعليم الزراعى بكلية « مكريرى » بأوغندة على نفقة الحكومة ، ويرفع الابن نظرة دامعة إلى والده ولـكنه يسمع صوته حزينا مشفقا ، يدرك منه أن والده ، لم يوفق فى الحصول على المال اللازم لسفره إلى مصر فيطرق ، ثم يبتعد عن والده ، حتى لا يشعره هو الآخر بالألم مضاعفا .

وتنتهى دراسة « على » فى أوغندة ، ويعود ليعمل فى بلاده مهندسا مدة خمس سنوات ، ثم يتفرغ للسياسة التى نراه يأخذ طريقه إليها عن طريق الصحافة ، فنراه يعمل فى صحيفة « موزن جوزى »[2] التى تصدر بالسواحيلية ، والإنجليزية ، ثم يصل إلى منصب رئيس التحرير ، ثم يعين فى المجلس التشريعى عام ١٩٥١ ممثلا للعرب ، ونراه فى عام ١٩٥٤ يتقدم للحكومة بالمطالب الآتية : ـ

١ ــ التقدم السياسى لزنجبار وتغيير الدستور .

٢ ــ حق الشعب فى انتخاب ممثليه .

٣ ــ إلغاء الطائفية من المعركة .

٤ ــ تأليف حكومة دستوية تستمد دستورها من واقع الشعب .

---

(١) ملابس عربية فضفاضة

(٢) كلمة سواحيلية معناها (المرشد)

٥ — الاستقلال الاقتصادى .

٦ — النظر فى عودة ساحل كينيا .

وحين لم تستجب الحكومة لهذه المبادىء ، نرى « الكتلة العربية » تقاطع كل التكتلات الحكومية ، وتأخذ فى إعلان رأيها عن طريق صحيفة جديدة تسمى « الفلق » ، ثم يسافر إلى إنجلترا لعرض قضايا بلاده على المسئولين هناك ، ثم يعود إلى بلاده حيث يتزعم « الحزب الوطنى » بعد أن أدمجت فيه الجمعية العربية ، ووضعت قوانينه بحيث يفتح ذراعية لكل أبناء زنجبار ، وزيادة فى هذا التأكيد اختير « فواى كتويل » الإفريقى الأصل راعيا لهذا الحزب . حتى يمكن ضرب الطائفية المنتشرة فى البلاد .

ولكن الإنجليز أدركوا خطورة هذا الحزب ، فدفعوا فى مواجهته حزبا آخر مؤيداً منهم هو حزب « اتحاد إفريقية الشيرازية » ، كما دفعوا كذلك بالهنود إلى المعركة ، وأخذوا يذيعون أن « الحزب الوطنى » يقوم على مساندة العرب وحدهم ، وأن العرب هم تجار الرقيق الذين يجب أن ينكرهم الإفريقيون ، وأن مصر وراء هذا التكتل ، وهكذا تعرضت هذه الدعوة الصادقة بوساطة إذاعة بريطانيا وجرائدها فى تنجانيقا — وكلاهما مسموع ومقروء فى زنجبار — للتشويه ، وفى الوقت نفسه حمت انجلترا المعارضين لهذا الحزب ووقفت من دونهم ، وجاءت فترة الانتخاب ، وكان أن فاز اتحاد إفريقية الشيرازى بـ ٣٧ ٪ من الأصوات ، والمستقلون والهنود بـ ٣٢ ٪ ، والحزب الوطنى بـ ٣١ ٪ ، ولكن حين وضحت الحقيقة — بعد فوات الأوان — أصبح الزنجباريون يساندون هذا الحزب ، ويؤكد الشعب أن مستقبله الآن مرهون بدستوره ، وأن السياسة التى يسير عليها من أنه يجب أن يكون الجميع « زنجباريين » هى السياسة التى يتوقف عليها تطور البلاد ، وأنها هى التى يجب أن ترفرف كالراية على جميع الرءوس !

وفى الوقت نفسه أحس المواطنون هناك أن عدوهم الحقيقى هو الاستعمار ، وأن مصر تقف إلى جوارهم ، وقد ظهر الحماس لمصر حين وقع الاعتداء الثلاثى ، فقد كان الشعب هناك يتجمع فى مظاهرات ، ثم يبتهل إلى الله ويرفع صوته بإخلاص من أجل مصر ، وكان من دعائهم « يا رب إن مصر هى الإسـلام ، وإذا ذهبت مصر ذهب الإسلام !! »

والغد كفيل بانتصار هذا الشعب الذى تجمعت طوائفه حول « على محسن » ولن يطول الوقت الذى سنسمع فيه أن زنجبار للزنجباريين ، ونشهد فيه فى الوقت نفسه الأيدى السمراء تمتد من الشرق فى القارة لتعانق أخوات لها فى الجمهورية العربية المتحدة .. على حب .. وسلام .



كثير من الناس يتحولون من بشر إلى أفكار ، حينما يرتبطون بالواقع النفسى والاجتماعى لبلادهم وللبشرية جميعا ، وما أكثر الذين تحولوا من بشر إلى أفكار فى إفريقية ، فالصراع قد دار فيها كأشد ما يكون الصراع عنفا وقسوة ، والصورة التى ترتبط فى ذهن الإنسان عنها فى هذه الأيام هى صورة العملاق الذى حطم قيوده ، وأخذ يضم أرضه ، وأمجاده فى حب ، ورحمة ، وحنين !

وفى هذه الفترة العصيبة للقارة طلعت علينا قيادات جبارة كلها إخلاص ، وتضحية ، ومن بين القيادات من لا يزال يحمل الراية فى شوق وحب ، ومنها من سقط كل شىء فيه إلا اليد التى تحمل هذه الراية الإفريقية التى تنادى بالحرية ، والسلام للبشر ، وفى طليعة هـذه القيادات نستطيع أن نلمح إنسانا قد تحول إلى مجد ، ودموع ، ولا تزال يده فى إصراره تحمل « الراية الإفريقية » .

تحملها فى صوماليا هذا الوطن الذى كان موضوعا تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة ، والذى نال استقلاله عام ١٩٦٠ ، والذى تبلغ مساحته ١٩٨٫٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانه ١٫٢٤٦٫٠٠٠ ، هذه اليد التى ماتزال ترفع الراية فى الصومال ، وبضم أجزائه المسلوخة عنه هى يد الشهيد « كمال الدين صلاح » .

وليست هذه اليد أول يد مصرية رفعت فى هذه البلاد ، فصلة مصر بالصومال قديمة ، وتأثير لغتها الهيروغليفية فى لهجاته ما زال حيا ، وهى ذلك القطاع الذى أطلقت عليه مصر لقب « بونت » .

ومن هنا فلم يكن الشهيد غريبا فى هذه المنطقة بعد أن ذهب إليها وهو فى قمة خبراته ، وتجاربه بعد حياة عاصفة قضاها فى القدس ، وفلسطين حينما كانت تحت الانتداب ، وفى بيروت ، واليونان ، وعمان ، وتشيكوسلوفاكيا ، ودمشق ، واستكهلم ، وفرنسا ، وقد أسلمته كل هذه البلاد بعضها إلى بعض فى حب ومودة إلى أن اختير ممثلا لمصر فى المجلس الاستشارى للأمم المتحدة بالصومال .

وفى الصومال هذه البلاد الطيبة أحس بالسعادة وهو يلقى عليها النظرات الأولى فقد وجد شعبا يغمره الوعى القومى ، والرغبة الخالصة فى الحرية ، وفى ضم أجزائه المتقطعة ، والمقسمة إلى خمسة أقسام ، قسمان تحت السيطرة البريطانية ، وقسم كان خاضعا لفرنسا ، وقسم خاضع لأثيوبيا ، وقسم كان تحت السيطرة الإيطالية وهو الذى تحرر الآن ، وأصبح يسمى صوماليا .

وفى صوماليا هـذه البلاد الطيبة ، أحس بالسعادة وهو يلقى عليها النظرات الأولى ، ومن هذا القسم الذى استنزفته إيطاليا ، وتآمرت عليه إنجلترا ، وصدرت إليه أمريكا خبراءها ، بالإضافة إلى بعض البلاد المجاورة . . وقف الشهيد فى إيجابية جبارة يدافع عن القيم الإنسانية ، وعن شرف الإنسان فى كل مكان ، هذا الإنسان الذى من حقه أن يعيش ، وأن يستمتع بحياته ، وحريته ، وأرضه .

وبخاصة أنه شاهد كرامة الإنسان قد أهدرت فى هذه البلاد ، فقد حارب الدخلاء قيمه ، وتقاليده ، واللغة التى يتكلم بها ، وإذا عرفنا أن هـذه البلاد قد

عرفت مصر القديمه فى الماضى ، وعرفت الإسلام حوالى عام ١٤٠٠ ، وأن ٩٩ ٪ من سكانه مسلمون ، وأن العروبة مستقرة فى أعماقه .. إذا عرفنا هذا أمكنا أن ندرك أعباء المسئولية التى كانت ملقاة على عاتق « كمال الدين صلاح » كإنسان وعربى فهو لم يقف موقفا سلبيا من الصراع الدائر فى الصومال ، وما كان له أن يقف هذا الموقف السلبى ، وهو يفكر بعقل مصر الذى يحب الخير للناس ، وبسياسة مصر التى تسعى لتحرير القارة ، ولذا تراه يلتزم جانب الشعب ، فقد وقف من دونه يدافع فاشية الدكتور « فرانكا » ومؤامرات « اميد ميكائيل ديسالنح » وأطماع لصوص البترول ، ورجعية « ادمندو » ومخالفة القنصل الإنجليزى .

فلقد كان هؤلاء جميعا هم المعول الذى يهبط ويصعد فى غير رحمة على قلب هـذا الشعب ، ومن جهة أخرى فلقد كانوا الوجه الخفى للقاتل ، الوجه الحقيقى « لمحمد شيخ عثمان » ، لقد كانوا البندقية وكان الرصاصة ، كانوا الخنجر ، وكان اليد التى دفعته فى قسوة ، وحقد فى ظهر القيم الشريفة كلها ، فى ظهر مندوب مصر .

ولقد نزع « كمال الدين » نفسه هذا الخنجر من ظهره لأنه كان يريد بقية من أمل ، بقية من عمر ليخدم بها هـذا البلد الذى أحبه ، ولما لم يكن هناك شىء من الأمل أغمض إحدى عينيه على أسرة بعيدة فى القاهرة ، والعين الأخرى على الصومال الذى أحبه ، الصومال الذى استشهد فيه ، وابتسم وهو يحتضر فى المستشفى فقد كان يغفر والغفران ابتسام !

ومهما يكن من شىء فقد ركز للعروبة شعلة على جانبى خط الاستواء ، بعد أن هدأت هـذه الشعلة فترة من الزمن نتيجة لانهيار إمبراطورية الخديوى إسماعيل فى إفريقية ، وفتح قناة السويس ، وتكالب الغرب على القارة فى القرن التاسع عشر نعم لقد ركز كمال الدين صلاح للعروبة شعلة فى أجزاء الوطن المفكك ، وأحضر من مصر رسلها ، فقاموا وما زالوا يقومون ببث هـذه الفكرة التى مهما قاومها

الاستعمار فستهزم الاستعمار لأنها نبات يسمق ويرتفع دائما ويعطى ثماره فى الأرض الإفريقية .

وفى ١٥ من إبريل عام ١٩٦١ تكون قد مرت على كمال الدين صلاح أربعة أعوام من الألم والدموع ، أربعة أعوام لم تترد على شفتيه فيها كلمة مصر التى كانت وطنه ، وكلمة صوماليا التى كانت حبه ، فقدا استحال إلى فكرة دامعة تذكر فى القاهرة فإذا هى جرح متوهج ما زال الخنجر مغروسا فيه ، وتذكر فى صوماليا فإذا هى عينان ممتلئتان بالسهد والدموع معا !

ومن هنا فليس غريبا أن تضحى مصر بأحد أبنائها فى سبيل القارة الإفريقية ، ما دامت دماؤه ستسقى شجرة فى إفريقية ، فستتحول إلى خصب فى النفوس ، وابتسامات على الوجوه ، ومساندة للأحرار على طول الطريق الأسود الكبير . . طريق إفريقية !

فدماء الشهيد قد أصبحت « علما قانيا » مركوزا على كل أفق ، ومثبتا فى أيدى الفدائيين الذين يسيرون فى إصرار ، وحزم لاسترداد كل القارة ، ولكن يوما بعينه فى عام ١٩٦٠ قد امتص كل الأحزان فى إفريقية . لأنه كان يوم استقلال هذه البلاد .



قد كان الزعيم « لومومبا » رجل عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦١ فقد شغل العالم من حوله ، وجعله إلى قسمين : قسم يتعاطف معه ، ويحرك يده جرياً وراء أخباره ، ويتلهف على الصحيفة والمجلة ليرى وجهه ، ويشرب أخباره ، فإذا مامل من وسائل الإعلام هذه هبط إلى نفسه ، واستعاد معرفته بالرجل فإذا به فى موكب ضخم من النور ، والحرية ، والاقتحام الجرىء !

أما القسم الآخر فقد عبس فى وجه هذه القوى الجديدة ، ولاحقها بالظلام ، والحقد ، والمؤامرات ، ولكن هذه القوى الشريرة أخذت تتوارى ، وتنهزم أمام الأضواء الإنسانية حتى تساقط الكثير منها ، ولكن مابقى منها كان من الحقد بحيث أمكنه أن يصوب « ضربة قاتلة » إلى قلب لومومبا . !

ولعل بطولة هذا الرجل لاترجع فقط ، إلى أنه عرف كيف يتفوق على نفسه ، وينسى القبلية ، ويتسامى عن المشاحنات التى تتناثر إلى حد جعله لا يقدر ما « لنقاط الحقد » من ضرر ، وإنما ترجع إلى أنه عاش يحمل كل آلام وطنه ، كل أحزانه ، كل دموعه ، كل دمائه التى تدفقت فى حقول المطاط ، كل أطرافه التى كانت تبتر فى الحقول ، وتقدم للبلجيكيين كدليل على أن هؤلاء المواطنين السود يعملون بجد فى ضيعة « ليوبولد » فى إفريقية .

ورغم أن هذا الزعيم قد ولد فى ٢ يوليو من عام ١٩٢٥ فى « كاتاتا كور كومى » بمنطقة « سامكورو » بإقليم « كاساى » وتلقى تعليما محدودا فى إحدى المدارس الأولية بمنطقة « ستانلى فيل » ثم تدرب بمدرسة البريد بـ « ليوبولدفيل » لثلاثة أعوام ، ثم حصل فى عام ١٩٤٥ على وظيفة صغيرة بمكتب بريد « ستانلى فيل » ووصل بعد أحد عشر عاما إلى وظيفة كاتب أول ببنك التوفير . . رغم كل هذا إلا أنى أميل إلى أنه ولد يوم مولد الكونغو فى الوجود ، ففى قلبه قد عاشت غاباته ومراعيه ، ونظمه ، وتقاليده ، ومساحته التى تزيد على تسعمائة ألف ميل مربع ، وسكانه الذين يبلغون عشرين مليوناً ، ثم داست هـذا القلب خطوات الرحالة «ستانلى» فى عام ١٨٧٤ ، وخطوات أخرى بعيدة هى خطوات « ليوبولد الثانى » الذى كان يحلم بإمبراطورية فى إفريقية ، ومن أجل هذا يعقد مؤتمرا للجغرافيين الأوروبيين فى بروكسل فى عام ١٨٧٦ ، ثم يذكر فى هذا المؤتمر أن الغرض منه هو شق مجرى « للحضارة ! » فى هذا الجزء المقفل من إفريقية .

ومن أجل هذه الغاية يستدعى إليه « ستانلى » ويؤسسان معاً فى عام ١٨٧٨ « جمعية دراسات أعالى الكونغو » ثم يعلن أنه سيتدخل بالقوة فى هذه البلاد ، ويكون هذا الإعلان هو « الطلقة » التى أعلنت بدء السباق الأوروبى فى إفريقية ، إذ أن إنجلترا سرعان — فى دوى هذه الطلقة — ما سيطرت على مصر ، والصومال ، وأوغندة ، والسودان ، ونيجيريا ، وإفريقية الشرقية ، وتوسعت فى جنوب إفريقية ، وغانة ، وسيراليون .

بينما تضع فرنسا يدها وتتوسع فى تونس ، والسنغال ، والكونغو الفرنسية ، وساحل العاج ، ومدغشقر .

وكذلك الحال بالنسبة لألمانيا والبرتغال ، وإيطاليا .

يذكر هذا لومومبا ويذكر أن الشعب قد أخذ يتساقط كما تتساقط أوراق الخريف على أيدى البلجيكيين ، ذلك لأن الشعب قد تناقص إلى اثنى عشر مليونا

وحرم من التعليم ، ومن الحياة الكريمة ، وسيق جميعه للتنقيب عن اليورانيوم ، والنحاس ، والمعادن الأخرى ، وتسليم كل ذلك إلى بلجيكا .

وإنه ليذكر كذلك أن هذا الهدوء الذى غطى الشعب قد أطمع هؤلاء البلجيكيين فى أن يدمجوا الكونغو فى بلادهم ، حتى لقد جاء فى خطاب للملك فى عام ١٩٥٠ قوله « إن والدى الذى ارتبط هو وأسلافه بهذا البلد قد غرس فى نفسى منذ نعومة أظفارى فكرة توحيد بلجيكا بالكونغو ، وخلق أمة موحدة منهما ! »

ولكن هذه الأفكار تزعج هذا الزعيم فتراه يؤسس فى عام ١٩٥٨ حزباً ، ويدخل به فى معارك مع الاستعماريين ، وقد تطور هذا الحزب على يديه ، وأصبح قوة إيجابية ، ويتآمر عليه البلجيكيون فتراهم يقبضون على « لومومبا » ويودعونه السجن ، وإذا بالشعب من حوله هتاف واحد بالحرية مما اضطرهم إلى إطلاق سراحه ودعوته إلى مؤتمر « المائدة المستديرة » فى بروكسل ، ويعود فيتلقاه الشعب بالفرح الغامر ، بينما يلقاه الاستعمار بعمليات « التخريب الداخلى » فتراه يتحرك بوساطة تشومبى ، وكالونجى ، وكازافوبو ، وموبوتو ، وأخيرا بالأمم المتحدة ، ذلك لأنه روّعهم بنجاحه الساحق فى الانتخابات ، ووضع قبضته على كل المصائر هناك .

ولم يكن بد من إعلان استقلال البلاد ، ومن سفر الملك « بودوان » إلى الكونغو ليعلن هذا الاستقلال بنفسه ، وهناك روع الملك أكثر من مرة لأنه ما كاد يستقبل فى المطار ، ويسير ركبه الهزيل حتى تقدم منه مواطن عادى ، وانتزع السيف المعلق بجانبه ، ثم أخذ يلوح به وهو يقول « الاستقلال الاستقلال » . . ولقد ذعر الملك أيما ذعر ، وهو يتلقى درسا فى الوطنية من هذا المواطن العادى فى الكونغو .

على أن ذعره الحقيقى كان فى البرلمان ، فرغم أنه تقدم من المنصة ، واغتصب بسمة ثم تكلم فقال « إن استقلال الكونغو يعتبر لحظة حاسمة ليس بالنسبة للكونغو فقط وإنما — ولا أتردد فى القول — لكافة القارة الإفريقية » رغم هذا

إلا أنه عاد يتصبب عرقا من جديد ، وهو يتلقى درسا قاسيا من لومومبا ، فقد آثر هذا الزعيم أن يقول كلمة الكونغو بشجاعة ، إذ أنه سرعان ما احتل المنصة ، وما كاد يهدأ التصفيق ، حتى حدق فى وجه الملك ثم ألقى أروع خطاب له ، هذا الخطاب الذى جاء فيه « . . بالرغم من أن استقلال الكونغو قد أعلن اليوم بالاتفاق مع بلجيكا ـ وهى دولة صديقة سنتعامل معها على قدم المساواة ـ إلا أنى أؤكد أن كل واحد منا لا يستحق أن ينتمى إلى الكونغو إذا هو تناسى أن بلاده قد هزمت فى كفاحها الذى كانت تخوض غماره يوما بعد يوم ، ولقد كان كفاحا مريرا لم يضن علينا البلجيكيون فيه بالحرمان ، والآلام ، والدماء .

لقد حاربنا فى معركة نبيلة عادلة ، لنضع حدا للاستعباد الذليل الذى فرضه علينا حكمكم الإرهابى المشين ، ومن هنا فجراحنا من الجدة بحيث لا تزول من ذاكرتنا فقد خضعنا للسخرة فى مقابل أجور لم تكن تكفينا . . أجور لم تكن توفر لنا القوت الضئيل ، والملابس المحتشمة ، أو حتى تمكننا من تربية أطفالنا تربية كريمة .

فقد كنا نعامل بالإهانات ، واللطمات التى كان يتحتم علينا أن نتحملها من الصباح إلى المساء لا لشىء إلا لأننا إفريقيون ، كان هذا بعد أن تم استيلاؤكم على الأراضى التى نملكها فى ظل قوانين جائرة لامبرر لها إلا فرض إرادة القوى على الضعيف ، فالقانون كان يختلف تماما ، عند تطبيقه على السود والبيض فى أرضنا ! وهكذا رأينا القصور الفاخرة للبيض والأكواخ الحقيرة لنا نحن السود !

ومن منا سينسى المشانق ، والرصاص ، الذى راح ضحيتها الكثير من أبناء الكونغو ؟ ومن منا سينسى السجون التى احتضنت من تجاوز عنه الرصاص ؟

ومهما يكن من شىء فإن الآلام والجروح التى تركها حكمكم على قلوبنا ، وأجسادنا قد انتهت ، ولكننا سنخوض معا ، كفاحاً سامياً مريراً يسير ببلادنا نحو السلام ، والرخاء ، والعظمة .

ولسوف يرى العالم أجمع ما يمكن للافريقيين أن يقوموا به فى هذه الحياة ، فسيتحول الكونغو إلى مركز للقوة والنفوذ للقارة الإفريقية جميعها . »

وهكذا جابه لومومبا الاستعمار بمخازيه ، وصب فوق رأس الملك كل حقد الشعب الدفين ، وانهار الملك ، وسافر غاضبا ، وأقسم له كل عملائه أنهم سينتقمون له ، وسيردون إليه كرامته التى اهدرت على يد لومومبا .

أما لومومبا فقد خرج ليعانق الشعب ، ليضمه إلى قلبه ، ليهدى إليه الاستقلال وفى الوقت الذى رفع فيه هذا الزعيم علم الحرية خفاقا على بلاده نرى تشومبى يعلن انفصال كاتنجا ، وكالونجى ، ويصرح باقتطاع كاساى عن « الوطن الأم » وترى بلجيكا تعتدى بالجنود المسلحين على « ماتادى » وتسرق رصيد الذهب ، ثم نرى كازافوبو يقيل لومومبا ، ويعطل البرلمان ونرى الأموال الأمريكية فى الكونغو البلجيكية تتدفق على « موبوتو » ليقوم بثورة تساعد « كازافوبو » ثم نرى الأمم المتحدة تسجن « لومومبا » فى منزله وتمنعه من الاتصال بالشعب الذى يحبه ، وحين يحطم الحصار المضروب من حوله ويقع فى أيدى رجال « موبوتو » نراها تعتبر الأمر مسألة داخلية ، ثم حين تطلق سراحه حامية « تايسفيل » نراها لا تسارع إلى حمايته ، وحين يساق إلى « كاتنجا » نراها غير آبهة لكل الأحداث الموجودة هناك ، ذلك لأنها كانت مشغولة بتسليم « كازافوبو » مقعدا فى الأمم المتحدة ، ومحاربة القبائل المناصرة للولومبا وبخاصة قبيلة « البالوبا » ، وبالمحافظة على أرواح البيض الذين عادوا ثانية إلى الكونغو ، بعد أن أخرجهم منه لومومبا ، عادوا لينشروا الظلام ، والحقد وليطفئوا الشعلة التى ارتفعت بيد لومومبا .

ومن « بلجيكا » يعلن أن « لومومبا » قد قتل ، وتتضارب الأنباء حول أنباء مقتله ، وتطلق أخبار كاذبة لخدمة قضية الغدر ، ولتعذيب الإنسانية ويترقب العالم هذه الأحداث ، ويعيش فى دوامتها ، وكل نفس فيه متعلق بمصير الحرية هناك ، وكل أشواق عينيه متجهة إلى حيث قالوا إن لومومبا موجود .

ثم يقف تشومبي وكأس من الشامبانيا يهتز في يده ويعلن أن لومومبا فر من سجنه وأنه قتل في أثناء فراره ، وأنه لن يعلن عن مكان موته .

ويروع العالم من جديد ، وينحنى على جرح في قلبه ، فلم يدر تشومبي أنه أغمد في قلب كل إنسان في العالم نصلا داميا ، وأن هذا العصر مسئول عن مقتل هذا الزعيم وأنه بغدره هذا قد وضع الضمير الإنساني في محنة ، وعلق في كل هدب دمعة ، وحفر في قلب كل إنسان مكانا كبيراً يضم لومومبا بأمجاده . . يضمه وهو ينشر روح الحرية في بلاده . . وهو يحاصر قوى الاستعمار . . وهو يسقط والرصاص في قلبه . . قلبه الذى أحب الكونغو ، وعاش أحزانه وبكى بمآقيه ، وحمل باسمه إلى السجن ، ثم إلى الحصار ، ثم إلى التعذيب . . ثم إلى الموت !!

وأى موت هذا الذى ماته هذا الزعيم الكبير ، إنه الخلود بعينه ، أما الذين ماتوا فهم هؤلاء الذين انخدعوا ببلجيكا ، وسددوا ضربتهم إلى الداخل . . إلى وطنهم حيث يعيش في قلب لومومبا . . حيث يورق ، ويتغنى ، ويحلم بالفجر :

الذى تلقى الضربات هو الكونغو نفسه ، لأن هذا الوطن بغاباته ، وأنهاره ، ومناجمه ، وحقوله ، كان قد تجسم في شخص لومومبا . . وهكذا تداعى الوطن ولومومبا يتداعى ، وأصيب بنفس الرصاص الذى اندفع إلى قلبه ، ووقع حين وقع لومومبا ، ومات حين مات !

ولن يحيى هذا الوطن إلا إذا أخذ بثأره من قاتليه . . إلا إذا حرمت أرضه على البلجيكيين . . إلا إذا حوصر الخونة من العملاء ، وقبض عليهم وقدموا طعاما للرصاص باسم العدالة ، واسم لومومبا ، واسم الوطن الذى مات .

إن كل إنسان في العالم مسئول عن « دم هذا الرجل ! » الذى كان الأمل لمواطنيه ، والفرحة في العلم الذى رفع باسم الحرية ، والنور في الجفون التى أشرقت باسم الاستقلال . . وما دام كل هذا قد انطفأ مرة واحدة فلابد من الانتقام له ،

فالوطن الذى سقط لابد أن يقوم مرة ثانية ، لا بد أن يورق ، ويزدهر ويتغنى بالحرية .

ومع أننا نعرف قيمة الدم الذى أهدر إلا أننا لانبخل به على شعب الكونغو ، مادام سيرتفع علما أحمر-قانيا من جديد على كل الربوع . . علما ينادى باستقلال البلاد . . علما يطارد كل الذين خانوا الحرية . . علما يصرخ بأن الكونغو لن يكون مزرعة لبلجيكا ، وبنكا لأمريكا ، ورأس جسر لفرنسا ، ووسيلة ضغط لإنجلترا وستارا للبرتغال .

ولقد أحب لومومبا الجمهورية العربية المتحدة التى أضاءت فى جبينه ، ولمعت فى ضميره ، وجعلته يؤثرها بفلذات كبده .. جعلته يقول لبياترس ، وفرانسو ، وجوليانا « اذهبوا فستجدون لكم أبا هناك هو الرئيس جمال عبد الناصر » .

والذى لاشك فيه أن لومومبا كان يتذكر الجمهورية العربية المتحدة فى كل مكان توجه إليه ! كان يتذكرها والرصاص يثقب عمره ، ويستقر فى أعماقه ، ويفجر دمه !

وبلادنا لا يسعها إلا أن تبادله حبا بحب ، وترفرف بأجنحة الحنان على فلذات كبده ، فالجمهورية العربية المتحدة لن تنس له أنه أحبها ، وأخلص لها ، وأغمض إحدى عينيه ــ وهو يموت ــ على الكونغو ، والثانية على القاهرة ، حيث يعيش أبناؤه . . وحيث تعيش الحرية .

لقد مات بدون دموع ، كما يموت الأبطال ، ونحن نودعه كذلك ، بدون دموع كما يودع الأبطال ، ولكن نعاهده على أن تكون بلادنا نصيرة للحرية فى بلاده ومؤيده للمبادئ التى دافع عنها ، فهذا هو ما يرضيه لأنه فى الحقيقة عاش باسم الكونغو !! ومات باسم الكونغو !!



تلتقى آمال الشعب الكونغولى الآن وأشواقه فى قلب واحد من أبنائه الذين صهرتهم الحياة ، والذين عاشوا الكونغو عذابا وأشواقا وانتصارا ، ثم ارتدادا عن الحرية فى بعض القطاعات الكبيرة ، ثم أخيرا صدرا كبيرا يتلقى القتلى واحداً بعد الآخر ، ويقيم بهم نصبا للحرية والوحدة فى بلاده التى تقتلعها الأعاصير .

ذلك لأن قضية الكونغو قد تلقت ضربات الخيانة من الداخل والخارج ، ولأن القوى الأجنبية قد لاقت الأيدى التى تحرضها ، ثم تشهرها ، ثم تغمدها فى قلب الوطن أكثر من مرة ، ولقد كان هذا أقسى ما واجهه « جيزنجا » فى عمره الذى لا يتجاوز ثمانية وثلاثين عاما . . على أنه لم يرتعد ، ولم ينهار لأنه سرعان ما أصبح الشجرة الصلبة فى الأرض الحزينة ، ولأنه استطاع أن يجمع القوى الوطنية فى بلاده ، ثم يرفعها فى « ستانلى فيل » علما كبير للحرية والوحدة !

ذلك لأنه عرف الكفاح فى حياته ، وعرف كيف ينتصر على قوى الظلام من حوله ، وكيف يتغلب على الظروف السيئة التى أحاطت بقريته الصغيرة « جونجو » فى إقليم « ليوبولد فيل » ، فقد حببت إليه طبيعته المتأملة أن يصبح واحدا من رجال الدين المسيحيين ، وأن يضم يديه إلى صدره ثم يسير إلى الله فى صلوات مخلصة عميقة ومن أجل هذا نراه يعكف على دراسة الفلسفة ، واللاهوت ، وتستغرقه هذه الدراسة

ولكن الحياة من حوله كانت أقوى منه .. كانت تريده . . كانت تشعره شيئا فشيئا أنه وهو يضم يديه إلى صدره يناجى الشعب ، ويتوجه إليه ، ويصلى له !

ومن هنا نراه يخرج من عزلته ليشترك فى عبء إطعام إسرته مع والده الفقير ، وأمه التاجرة ، وتدفعه الحياة إلى عمل فى البنك البلجيكى ، فقد رأى المسئولون على وجهه السهد ، والحزن ، وشيئا غير قليل من الصمت .

ولكن أملهم سرعان ما خاب حينما أبصروه يناقش ، ويتحدث فى حب عن بلاده ثم أخيرا يهوى بيده على وجه زميل له « أبيض » ، وسرعان ما اعتبر هذا العمل جريمة ورأى نفسه مشردا لا يجد قوت يومه !

ويهتدى أخيرا إلى وظيفة فى شئون الإدارة ، ولكن الوجوه البيض كانت تزلزل أعماقه ، وتحفزه للاستعداد للمعركة ، ولذا نراه يترك هذا العمل ليلتحق بالتدريس ، لأنه يجد فى نفسه شيئا يريد أن يقوله ، ففى استطاعته أن يقول لمئات العيون الاستوائية الكثير عن بلادها التى كانت مزرعة خاصة بـ « ليوبولد الثانى » ، وعن أيدى الأجداد التى كانت تقطع فى حقول المطاط ، وعن الترف ، والصحة والزهو المسروق منهم لأطفال مثلهم فى بلجيكا ، وما أشد ما كان التلاميذ يحملقون وهم يكتشفون « كذب التاريخ » فى كتبهم ، وفى بلدهم !

وقد ساعدته الطمأنينة فى هذه الحياة الجديدة إلى أن يؤلف حزب « التضامن الإفريقى » سريا فى أول الأمر ، ثم سرعان ما رأى نفسه ينجذب إلى حزب « التحرر الإفريقى » الذى كان على رأسه لومومبا ، وإذا بهما يتفقان على كثير من الخطى التى يمكن أن تؤدى بالبلاد إلى الحرية ، وإلى الوحدة !

وحين يرى « جيزنجا » الضغط على هذه القوى التحررية فى البلاد ، نراه يعرض على الزعماء تأليف حكومة للكونغو فى المنفى ، ويسارع مع ثلاثة لتنفيذ الفكرة ، ولكن الحكومة تعتقلهم قبل أن يصلوا إلى « برازفيل » على أنه سرعان ما دخل

المعركة الانتخابية التى تقرر فيها مصير البلاد ، وأصبح حزبه يلى حزب لومومبا فى الانتصار ، وإذا به يحتفظ بمنصب نائب رئيس الوزراء ، وتسير دفة الحياة . . ولكن رياح الخيانة ما لبثت أن هبت من الداخل والخارج ، ومن الأمم المتحدة نفسها ، وقد وجد لومومبا وجيزنجا نفسيهما يعملان فى الفراغ بعد أن دفعا بالجيش إلى استعادة كاتنجا ، وكاساى ، وتهب رياح الخيانة أكثر فإذا بالقوى الدخيلة تدفع بموبوتو إلى القيام بانقلاب .

وحين استطاع أن يضرب ضربته نراه يأمر بالقبض على « جيزنجا » ، وترحيله إلى كاتنجا ليعدم هناك ، وقد ذهبوا به بالفعل إلى المطار ، ولكن رجال الأمم المتحدة ــ ولعل هذا هو الشىء الوحيد الذى يحمد لهم ــ قد استطاعوا تخليصه من أيديهم .

ويغيم الجو ، وتنتصر الخيانة ، ويتدهور الحال فى البلاد . . وإذا به يقيم حكومة شرعية فى الإقليم الشرقى ، ويضم إليه إقليم كيفو ، ولا يوافق على تقسيم بلاده على الخارجين على وحدته .

وأخيرا يصبح الأمل الوحيد الذى بقى للقوى الوطنية بالكونغو ، وقد سار « جيزنجا » فى هذا الطريق التحررى ، ولكنه نزل على إرادة البرلمان الذى اختار « سيريل أدولا » رئيسا للوزراء ، بينما وقع الاختيار عليه كنائب لسيريل أدولا ولا يمر كثير من الوقت حتى يقبض عليه من معقله ، ويسار به إلى « ليوبولدفيل » ومهما يكن من شىء فإنه إن قتل ــ وليس هذا ببعيد ــ فسيكون علما آخر للحرية إلى جانب لومومبا ، وإذا بقى فسيظل حارس الحرية الوحيد فى الكونغو .



ظل « فرانسو دومينيك توسان » يحدق فى وجه والده على طول الطريق المؤدى إلى حقول القصب الممتدة ، ولم يجرؤ على سؤاله عن شىء غامض يقلق روحه ، ويعذب وجدانه ، فقد كان الوالد يجرجر قدميه فى تعب وإعياء ، وكأنه يحمل فوق كاهله كل أعباء الدنيا ، ولكن لمسة حنان من يده ، شجعته على أن يرفع وجهه الصغير إلى وجهه المعروق ثم يسائله « هل سنذهب كل يوم إلى الحقل تحت وقع هذه السياط » .

ويتململ الوالد ، وتغيم الدنيا فى عينيه ، ويفقد شيئا فشيئا جزيرة « تاهيتى » التى يجرجر فيها ولده الصغير إلى حقولها ، وتأخذ مكانها فى عينيه ، وفى قلبه . . قرية صغيرة فى إفريقية تعشش قرب أشجار الغابة ، ثم أصوات دخيلة ، وطلقات نارية ، وأيد قاسية تدفع به وبوالده وبكثير من أهل القرية إلى طريق غريب عليه ، ثم إلى مرفأ ، ثم إلى سفينة ، ثم إلى هذا المكان ، وما يكاد يصل إلى هذا المدى من الذكرى الحزينة حتى يضم إليه ابنه فى قوة ، وينحنى عليه ليقبله حتى لايفقده كما فقد هو أباه فى هذه البلاد الغريبة ، ولكنه يفيق من حلمه على « سوط » يلفه فى عنف ثم يمس وجه ابنه فيدميه .

وما أسرع ما يهرول الأب وهو يجذب ابنه دون احتجاج فقـــد كان السادة الفرنسيون والأسبانيون الذين يملأون هذه الجزيرة يعاقبون هؤلاء العبيد بألوان من التعذيب لايعرفها التاريخ ، فـكل إفريقى يحتج ، أو يتهاون فى العمل تمد إليه أكثر من يد لتقطع الأذن ، أو تجـدع الأنف ، أو تبتر الأطراف ، أو تلقيه فى النـار .

وقد دمرت ألوان التعذيب هذه نفسية « فرانسو » على أنا نراه يسترد نفسه شيئا فشيئا بما يقع تحت عينيه من ألوان المعرفة ، ثم بقيام الثورة الأمريكية وإعلان استقلال البلاد عن إنجلترا ، وبالثورة الفرنسية التى دعت إلى المساواة .

وقد استبشر مع جميع السود فى الجزيرة بهذه المبادىء الجديدة ، واعتقدوا أن « تاهيتى » ستخلص لهم ، وأنه سيكون لهم فيها وطن ينسيهم وطنهم البعيد ، ومن هنا نراهم يتـكتلون ، ويقفون وراء زعيم منهم يسمى « فنسان أوجيه » ويطلقونها كلمة مدوية بأنهم يريدون الحرية ، ولـكن السادة البيض الذين يضعون أيديهم على ثروات البلاد ومقدراتها يسارعون بتفتيت هذه الوحدة ، ويتوجون ضربتهم بقطع رأس « فنسان أوجيه » وتسليمها لأبنائهم ليلعبوا بها .

وقد أشعل هذا الحادث الإفريقيين ، وجعلهم يتجمعون من جديد تحت زعامة « فرانسو » الذى عرف كيف يثيرهم على جلاديهم ، ونجح فى أن يضم إلى هذه الثورة الشبان الذين ينـكرهم البيض لأنهم أتوا بهم من أمهات سود ، ثم نراه يدخل مع هؤلاء البيض معركة إثرمعركة ، وفى كل معركة كان ينتصر ، ويحصل من أعدائه على السلاح حتى أصبحت الجزيرة دولة مستقلة تحت هذا العلم الأسود الـكبير الذى رفعه هؤلاء الإفريقيون بجباههم السوداء فى هذه البلاد التى تبعد عن أوطانهم ، ولـكنها بما شربت من دمائهم ، وأثمرت من كفاحهم ، وأزهرت من عرقهم أصبحت وطنا لهم !

وقد دخلت معه إنجلترا فى مفاوضات ، ورغبته فى الانضمام إليها ضد فرنسا ولكنه لم يقبل أن يكون تابعا لأحد ، على أن فرنسا ما كادت تهدأ جراحها ، وما كادت تستعيد أمجادها على يد «نابليون» حتى بعث إليه بقوة كبيرة لاستعادة هذه الجزيرة ، والقبض عليه ، ولكنه دخل فى حرب مريرة مع هذه القوة التى تمت له هزيمتها ، وكان أن طلب القائد الفرنسى الصلح فاستجاب له « فرانسو » وأرسل بجنده بعيدا عن الميدان ، وذهب إليه لمفاوضته ، وبعد أن تناولا معا طعام الغذاء ، وتحدثا فى انسحاب الفرنسيين ، رأى القائد الفرنسى أن ينفذ الخدعة التى دبرها ، وكان أن أمر جنوده باعتقاله ، والسير به بعيدا عن ميدان المعركة ، ثم اقتيد إلى فرنسا حيث قضى نحبه فى سجن بمدينة « جو » فى عام ١٨٠٣ .

على أن أهل الجزيرة قد صمموا على نيل الحرية ، ودخلوا باسمها معارك ضد الفرنسيين ، والأسبان ، حتى تدخلت فى شئونها الولايات المتحدة الأمريكية ، وأصبحت بعد ذلك ولاية حرة تدين بالعلم المرفوع فيها إلى اليد السوداء التى رفعته فى قوة ، وتصميم !

إلى يد « فرانسو دومينيك توسان » .

محمد الماس

علت الدهشة وجه الصاغ « محمد الماس » حين تقدم إليه فى لهفة أحد جنود فرقته السودانية ثم ذكر له ـ بعد أن أدى التحية العسكرية ـ بأن هناك إشارة سريعة من القيادة تقول بأن عليه أن يستعد سريعا للسفر إلى « المكسيك » .

ورنت هذه الكلمة فى أذن الضابط الشاب ذلك لأنها كانت إضافة جديدة إلى القاموس العسكرى المحدود فى هذه الفترة . فلم يكن لأحد كما يمكن الآن أن يلف بأصبعه الكرة الأرضية متحرك مفتاح الراديو . أو حدق فى التليفزيون . أوتصحف إحدى الجرائد ، ومتى كان يمكن ذلك ونحن فى عصر « سعيد باشا» الذى تولى الحكم عام ١٨٥٤ خلفا لابن أخيه « عباس باشا » .

ومع أن هذه الكلمة الجديدة قد رنت فى قلبه كما رنت فى أذنه . إلا أن بسمة الرضا سرعان ما عادت تتألق على وجهه من جديد . ولكن ذلك لم يمنعه من أن يفكر فى ماضيه فى الجنوب ، وكيف ولد فى قرية صغيرة تطل على صحراء كبيرة ، وكيف كان يحس من صغره رغبة جادة فى الانخراط فى السلك العسكرى . . ثم كيف ترك فى قريته المطرقة هناك ذكرياته حينما كان يترنم بالدوبيت ، ويختار وزيرا للعريس ، ويتلقى الضرب بشجاعة فى حلبات الأفراح ، ويدق الدلوكة ، ويعود بالغزلان ، ويأكل المرارة . ثم أخيرا كيف كان يمد بصره بعيداً بعيداً فلا يرى إلا الصحراء ، والصمت ، والأشجار الجافة المعروقة التى لا تتذوق طعم الماء إلا منصبا بعنف وقسوة من السماء بين البرق ، والرعد ، والسحب المظلمة !

ولكنه سرعان ماتنبه إلى نفسه . عاد إلى قمة السنين التى كان قد تركها ليزود

نفسه بذكريات الطفولة المدخرة . عاد إلى وقع كلمة « المكسيك » التى أخذت تدق بعنف ، ورتابة فى صدره ، وكأنها ساعة المعسكر العنيفة التى لاتكف هى الأخرى عن العنف والرتابة ، وحقا لقد أشبهت هذه الكلمة البذرة فسرعان ما نمت ، وتحركت ، وزاحمت روحه التى كانت لا تتسع إلا لشىء واحد هو ذكرياته التى تركها بعيدا فى السودان !

وأحس « محمد الماس » بشىء يدفعه إلى خارج حجرته ، وخرج فوجد قدميه تسيران به إلى قائده البكباشى « جبر الله محمد » قائد الفرقة السودانية ، وهناك وجد عنده الكثير من زملائه . كما وجد جوا حاداً لم يألفه كأنه كان هو الآخر يتنفس من أطراف السيوف حين تضيق ، وتنتهى إلى « نقطة الموت ! »

وسمع هناك من رئيس الفرقة أن السبب فى هذه الحملة هو هذا النزاع الذى كان محتدما بين نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، والمسيو جوازر رئيس جمهورية المكسيك .

وأن سبب هذا العداء هو رغبة فرنسا فى قيام حكومة ملكية كاثوليكية فى هذه البلاد وأن حكومة المكسيك كانت قد أساءت إلى رعايا فرنسا ، وإنجلترا ، وأسبانيا فى هذه البلاد ، وأن هذه الدول الثلاث قد استقر عزمها على تأديب المكسيك ، ولكن الخلاف مالبث أن نشب بين الدول الثلاث ، واضطرت فرنسا محافظة على شرفها أن تقوم وحدها بتأديب هذه البلاد .

وما كان لأحد أن يسأل « ما دخل مصر فى هذا الآن ؟ » لأن الجميع كان يعرف « الصداقة الزائفة » التى تربط سعيد باشا بنابليون الثالث .

ولم يستمع « محمد الماس » إلى هذا الحديث فقط ، وإنما أكمل ضابط آخر بقية القصة حين تحدث عن حرارة الجو فى هذه البلاد ، ورداءته ، وانتشار الأمراض

المتوطنة فيه ، وأن الاختيار وقع عليهم لمشابهة الحياة فى هذه للحياة فى بلادهم .

وما كاد هذا الزميل ينتهى من حديثه حتى أحسّ بضيق فى نفسه حينما سمع هذا الحديث عن بلاده ، وحينما تحركت فيه إنسانيته التى ستسفك غدا دماء لم تهنه ، ولم تهن بلاده . حتى الإنسان الذى سيقتله هناك لا يعرفه ! وقد ارتجف حينما عرف أن الأوامر التى صدرت تحتم على الفرقة السودانية الاجتماع فى صباح ٨ من يناير عام ١٨٦٣ فى ميناء الاسكندرية ليستقلوا من هناك الباخرة لاسين La Seine ولقد كانت رحلة تعيسة فقد مات سبعة من زملائه فى الرحلة التى استغرقت سبعة وأربعين يوما . ثم توجت هذه الرحلة أخيرا حينما وصلت إلى المكسيك بموت قائدها البكباشى « جبر الله محمد » بالحمى الصفراء التى كانت منتشرة فى هذه البلاد ، والتى كانت تصل نسبة المرضى فيها يوميا إلى اثنين وأربعين جنديا .

وقد أحس الضابط الشاب دائما أن هذه الحرب لا تمس وجدانه ، وتأكد هذا حينما وجد انقطاع التفاهم بين الكتيبة السودانية التى كان لا يعرف أحد فيها الفرنسية وبين الفرنسيين أنفسهم ، وحينما دفع الفرنسيون بالجنود الجزائريين إلى عملية التفاهم بينهم وبين السودانيين قام سوء تفاهم آخر بين المعسكرين . خاصة حينما استبدل الفرنسيون أسلحتهم التى كانوا يحبونها ، ويألفونها بأسلحة وذخيرة فرنسية .

ورغم سوء التفاهم هذا إلا أنا نرى الجندى السودانى كان يحسّ فى قرارة نفسه أنه يجب عليه أن يحترم « شرف المعركة » . فهو سيوجه رصاصة إلى قلب لا يعرفه ، ويدفع بيده زنادا لا يؤمن بالحرب التى يخوض غمارها ، ويفقد الكثيرين أهليهم ، ووطنهم ، وغدهم . ولكن شرف المعركة من وراء القلب كان يصوب ويقتل ويدمر ، وينتصر على غرباء لم يسيئوا إليه .

وهكذا أبلت الفرقة بلاء حسنا ، واستطاعت أن تحرز لفرنسا عدة انتصارات وبلغ الضيق بالجنود ذروته حينما قررت فرنسا جلاءها عن المكسيك فى ١٢ من مارس عام ١٨٦٧ ، وتحسست الفرقة السودانية جراحها فوجدت أنها خاضت غمار

ثمان وأربعين معركة حربية فى مدة استغرقت أربع سنوات وسبعة عشر يوما استطاعت أن تفقد خلالها مائة وأربعين جنديا من مجموعها الذى كان يبلغ أربعمائة وثلاثة وخمسين جنديا !

ولقد مرت هذه الذكريات بعنف وقسوة حينما استعرض نابليون الثالث الفرقة فى فرنسا ، وشدّ بيده على يد الضابط الذى تولى رئاستها أخيرا « محمد الماس » ، ومنحه وسام « لا كروا دفسيه » زيادة على الرتبة التى كان قد منحها من قبل وهى رتبة « شفاليه دى لاليجيون »

ولقد بلغت هذه الذكريات حدا أزعج نفسية الضابط السودانى حينما استعرض الخديوى إسماعيل الفرقة فى ٢٨ من مايو عام ١٨٦٧ .

وبعد هذا ظل هناك شىء حزين يدق برتابة على قلب الضابط السودانى فقد كانت هناك دماء مكسيكية غزيرة تغرق روحه كل مساء ، وتهمس له وهى تحاصره « أيها الضابط السودانى لماذا فجرت كل هذه الدماء ؟ » وما كانت الدماء تنحسر عنه . وما كان للنوم أن يرفرف على عينيه إلا حينما كان يتوجه هو الآخر إلى القصر الخديوى ثم يسائله « لماذا أرسله إلى هناك ؟ لماذا بعث به إلى المكسيك ؟ »

الرحالة حرخوف

تعتبر الأسرة السادسة من أشهر الأسر التى اهتمت اهتماماً خاصا ببلاد النوبة ، والبلاد التى تقع خلفها جنوبا عند الشلال الثانى ، ويعتبر « حرخوف » من أشهر هؤلاء الرحالة الذين توغلوا فى الجنوب ، وقويت عندهم حاسة المعرفة بالنهر ، وكل البلاد الواقعة على جانبيه .

وقد كان يسير وفق طريقة علمية فى عملية الكشف هذه ، ذلك لأنه ما كان يعود من الطريق نفسه الذى سلكه . فالمغامرة السهلة لم تكن لتشوقه ، وتكرار المعرفة لم يكن يجد له صدى مستحبا فى نفسه التى كانت « كالمؤشر » الذى يتحرك فى خط جنوبى دائما : فقد قام بأربع رحلات متتابعة للكشف ، والدراسة . كانت أولاها حينما كان صغيراً وسمع أن والده سيتوغل نحو الجنوب ، وقد رجاه فى هذه المرة أن يصحبه ، ووعده ألا يشكو من شىء إن هو صحبه معه بعيداً عن مصر ، وأمام هذا الحماس الذى أرضى والده لم يكن بد من أن يسيرا سويا ، وأن يتوغلا حتى يصلا إلى « إيام » عند الشلال الثانى فى مدة طالت حتى بلغت ثمانية أشهر . كان خلالها « حرخوف » دائم البحث ، والسؤال عن طبيعة البلاد ، وسلوك الناس ، والمقارنة بين الطبيعة فى الجنوب والطبيعة فى الشمال ، والسلوك فى النوبة والسلوك فى مصر ، وما كان يقف كثيرا عند عملية المقارنة هذه ، لأنه ما كان ينكر شيئا من حوله ، وما كان يقابل عنده هذا الامتداد فى الجنوب إلا امتداداً آخر فى الشمال ، ومن هنا نراه يعود ممتلىء النفس بالروابط النيلية التى تضرب بجذورها فى كل مكان على الشاطئين .

وما يمكث كثيراً فى مصر حتى تراه بهذا القلق العلمى الذى يصله بالأيام الأولى التى قضاها هناك ، والذى يلح فى الصباح بالقوة نفسها التى يلح بها فى المساء . ومن هنا لايجد بدا من أن يطلب من المسئولين فى مصر أنه يريد أن يتوغل فى الجنوب أكثر مما توغل فى المرة الأولى ، ويجد آذانا صاغية ، وإعجابا بحماسه فتعد له العدة .
ونراه يسير مخترقا طريقا جديدا هو طريق « الفنتين » وفى طريقه كان يشاهد ويسجل طبيعة الحياة من حوله ، ويتعمق خطوات الوجود الرطبة التى كانت تتأمل هى الأخرى الحياة من حولها ، وتأتى له الرسل من مصر فيرد بأنه لن يترك البلاد إلا بعد أن يقضى ثمانية أشهر أخرى كهذه الأشهر الأولى ، فإذا أتمها عاد إلى مصر .
وأخذ يحدث الناس عن الطبيعة الطيبة فى هذه البلاد وعن امتداد الصحراء التى تكتنفها فى أكثر من مكان ، ويقبل عليه الناس يستمعون ، ويجد لذة فى أن يتكلم ، وتسوقه لذة الحديث إلى أن يفكر وهو يتكلم لم لايعود مرة ثالثة إلى هذه المنطقة ؟ ولم لايتوغل أكثر مما توغل من قبل ؟ ولم لايضيف إلى نفسه مساحات أكبر من تلك المساحات النفسية التى أضافها فى سابق أيامه ؟

وهكذا نراه يعود بعزم وحب جديدين إلى هذه البلاد مارا بدرب الأربعين المعروف ، وقد كانت هذه الرحلة مثمرة بالنسبة له فقدعاد بأفكار جديدة ، وبثلثمائة دابة محملة بخيرات هذه البلاد ، وكان هذا فى عهد « مرنرع » .

أما رحلته الرابعة والأخيرة فقد أحضر فيها قزماً للرقص المقدس أمام الملك وكان هذا فى عهد « بيبى الثانى » .

على أن « حرخوف » لم يكن الوحيد فى هذه الفترة الذى شاقه سحر الجنوب . فقد كان بجانبه كذلك الرحالة « مخو » والرحاله « سابنى » وقد كان الجميع

يعودون بالبخور ، والعطور ، وسن الفيل ، وريش النعام بعد أن كانوا يقدمون هم كذلك إلى رؤساء القبائل المنسوجات ، والعسل ، والعطور ، ولم يكن السفر فى هذه الفترة سهلا ، ولكن كان يخفف من هذه الصعوبة أن القوات النوبية كانت تشكل جزءا من الجيش المصرى ، حتى إن جيش « أونى » كان قائما على التجهيز من النوبيين والمصريين سواء بسواء ، فضلا عن روابط المصاهرة التى كانت تتم بين الشعبين دائما .

وهكذا نرى فضل مصر قديما ، فى عملية الاستكشافات على طول النيل .

الشريف الإدريسي

لم يعرف التاريخ إفريقية عادية على بلاد قارة أخرى ، ونحن نعرف أنها عاشت منطوية على أمجادها وتاريخها ، وأن كل عمليات الغزو الخارجى كانت تقف فى شمالها ، فالفرس قد وقفوا عند مصر ، والرومانيون فى عهد الإمبراطورية الرومانية الكبرى ، ووريثتها الإمبراطورية الرومانية الشرقية لم يتعدوا مصر ، وبلاد المغرب ، ولم يكسر هـذا الحاجز سوى المد العربى الذى تخطى الشمال الإفريقى كله ثم عبر الصحراء الكبرى ، سالكا فى جميع عمليات المدّ هذه خمسة طرق ظلت ترفد القارة بالمجاهدين ، والدعاة ، والتجار ، حتى استطاع الإسلام أن يقيم عشر دول باسمه لا فى الشمال أو الشرق بل فى الجنوب الغربى فيما بعد الصحراء ، وقد يبدو هـذا الكلام غريبا بعد أن نجح الاستعمار فى إخفاء معالم هذه الشعوب ، ولكن الحقيقة تؤكد قيام هذه الدول باسم الإسلام وهى : —

١ — مملكة غانة .
٢ — مملكة صوصو فى كانياجا .
٣ — مملكة مالى .
٤ — مملكة صنغاى فى جوا .
٥ — مملكة اليوروبا فى نيجيريا .
٦ — مملكة برنو .
٧ — إمارات الحوصة .
٨ — مملكة الكانم .
٩ — إمارات موسى .
١٠ — مملكة اليمبارا .

وقد تم للعرب هذا بعد أن غطوا بقاعا كبيرة من القارة الإفريقية ، وسيطروا على طرق الملاحة داخل القارة وخارجها ، وقد مهد كل هذا للرحالة والمؤرخين أن يطوفوا في أنحاء القارة ، وأن يقدموا من خلال مؤلفاتهم إفريقية قبل الغزو الأوروبى ، ولهؤلاء الذين يصرخون بأن إفريقية من مكتشفات الرجل الأبيض نقدم التراث الضخم الذى قدمه بالعربية عن القارة ابن عبد الحكم ، ابن بطوطة ، الاصطخرى ، محمد الأندلسى ، البكرى ، المسعودى ، ابن حوقل ، ابن سعيد ، ابن فاطمة ، المقدسى ، والمقرى ، العمرى ، ابن خلدون ، والحيمى ، جلال الدين السيوطى ، التونسى ، ابن خرداذبة .

على أن من اللامعين الذين قدموا لنا القارة الإفريقية هـذا الرجل العظيم المسمى « أبو عبد الله محمد بن عبـد الله بن إدريس الصقلى العلوى » فى كتابه « نزهة المشتاق فى أخبار الآفاق » فـكتابه يعتبر ثروة علمية عن إفريقية فى الفترة التى عاشتها ، بين عامى ١٠٩٩ ، ١١٨٠م وهما عاما مولده ووفاته ، وقد عاش حياته الأولى فى « سبته » ، ثم انتقل إلى « قرطبة » ليتزود من معارفها ، على أن هذا اللون من التعليم النظرى لم يملأ عليه نفسه ، ولم يربطه ببلاده ، وإنما دفعه إلى التفـكير فى القيام برحلة كبيرة تغطى المساحات الشاسعة فى نفسه التى لايمكن أن تخضر وتورق إلا حينما يراها ، ويلمسها ، ويتعمقها ، فقد كانت نفسه تنطوى على كل بلد ازدهر فيها الإسلام ، وكان يشعر أن حدوده لاتقف عند جسمه ، وإنما تتعداه إلى كل بلد صعدت فيه مئذنة ، وانداحت فى أعماقه كلمة الدين .

ومن هنا نراه يبحث عن نفسه ، ويتلمس أعماقه فى حدود أعوامه الستة عشرة فيراها كبيرة . . ممتدة ، ويصدق منه العزم فإذا بالعرق على جبينه تحت شمس إفريقية الملتهبة ، وإذا بالدفء يغمر كل أيامه تحت شمس آسيا الصغرى . وإذا بقدميه تضربان فى شوق بين مدن فرنسا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وإذا به يخرج علينا بتصورات أهمها خريطة الأرض كما تصورها فى هذه الفترة ، وأن هذه الأرض تنقسم إلى سبعة أقاليم ،

وأن كل إقليم ينقسم إلى ممالك ، ولا ينسى الوقوف أمام كل بلد عرج به التاريخ ، ومسَّه بشيء من خلوده !

فهو حين يتكلم عن بلاد التكرور التي تقع حاليا غرب جمهورية السودان إلى المحيط الأطلسي نراه يحدثنا عن جزيرة « أوليل » وطرق الملاحة بها ، وكيف يقصدها الأهالي لاستخراج الملح ، وحين يتحدث عن مدن سلى ، سلى ، تكرور ، بريس . . نراه يحدد موقع كل بلد ، ويصف مبانيها ، وسكانها ، وطريقة الحياة بها ، مركزا اهتمامه الكبير على حياة الشعب نفسه فى كفاحه ، وصراعه من أجل لقمة العيش .

وحين يتكلم عن أرض « لملم » الواقعة جنوب بلاد التكرور نراه يتعرض للغة أهلها الغريبة ، وكيف أن اليهودية تنتشر بين بلدتى « ملل » و« دو » ، ويقصدهما التجار لقنص الأهالى ويبعهم كعبيد ، وأن الغابات من حولهما تغص بالأسود ، والغزلان ، والأفيال ، وأن بعض الأهالى يعمل كرعاة ، أما البعض الآخر فيعتمدون فى حياتهم على صيد الأسماك وبخاصة الحوت .

ثم نراه يحدد المسافة بين « ملل » ، « غانة » بمسيرة اثنى عشر يوما فى صحراء محرقة ، جافة من المياه ، ويذكر لنا أن ملكها من ذرية الإمام على بن أبى طالب وأنه يتفقد رعيته مرتين كل يوم ، وأن فرسه يتناول طعامه من لبنة مثقوبة فى جدار قصره وأنها من الذهب الخالص ويبلغ وزنها ثلاثون رطلا .

وبعد « غانة » نراه يطوف فى جزيرة « ونقارة » التى يقصدها الناس متى انحسر عنها الماء فى كل عام لجمع الذهب ، ثم نراه يقدم لنا « الحبشة » فى هذه الفترة ، وكذلك بلاد « البجة » و « النوبة » فى السودان .

ومن آثاره الكرة الأرضية التى صنعها للملك «روجار» ملك صقليه ودور هذا

الرجل لا يقف عند الأثر الجغرافى فقط لأنا نراه يقدم لنا وثائق عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية .

وهكذا نرى أن المفكرين العرب قد قاموا بعملية مسح للقارة فى هذا العصر المتقدم ، وأنهم لم يقفوا متفرجين على هذه البلاد التى فتحت لهم أعماقها ، ورحبت بهم ، وإنما نراهم أسهموا فى تطورها ، وجابوا آفاقها ، وقدموا ما يمكن أن يقدم من ثقافة فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ القارة .

ولعل المثل العربى الذى يقول « عندما نزمر فى زنجبار ترقص كل إفريقية إلى البحيرات الكبرى » يدل دلالة قاطعة على التجاوب والأصداء العربية التى كانت تتردد فى القارة الإفريقية بحب ، وفهم ، لإخوانهم الإفريقيين !

ابن مسجح

من الشخصيات الإفريقية التى كان لها دور هام فى الغناء العربى شخصية « سعيد ابن مسجح أبو عثمان » مولى بنى جمح[1] . وقد كان فطنا ذكيا يسرع الناس إلى مجالسه ، ويتعشقون أحاديثه ، وبخاصة حينما كان يتحدث عن طوافه فى البلاد التى مر بها من قبل . فقد رحل إلى الشام حيث وعت روحه ألحان الروم . والألحان البربطية[2] وهم قوم كانوا يسكنون جزيرة فى جنوب فرنسا . وعلى قدر كبير من إجادة الغناء والقصف . ولم يقف طموحه عند استيعاب هذه الألحان . وإنما انقلب إلى فارس حيث أغرق نفسه فى تلك الأنغام المؤثرة التى تفيض بها طبيعة هذه البلاد . ولم يكتف بمرحلة السماع هذه ، وإنما تعلم أيضا العزف على بعض الآلات الفارسية .

ويقال إنه تأثر بغناء الفرس واستوعب ملامحه من الفارسيين الذين كانوا يبنون المسجد الحرام ، بعد أن امتدت الريح إلى أستار الكعبة بنيران « ابن الزبير » بعد أن أمر برفعها على رمح لينظر فى ضوئها الناس ، مثبتا لقلوبهم من الحصار الذى كان مضروبا عليهم ، فلما أحرقت النيران أستار الكعبة ، دعا «ابن الزبير» ببنائين من الفرس والروم لإعادة البناء .

يستدل أصحاب هذا الرأى القائل بأنه لم يذهب إلى فارس بقصة «خرية مسجح» التى تتلخص فى أن مولاه قد سمعه يغنى بصوت مؤثر ، وبتلوين جديد على الغناء العربى هذين البيتين :

---

(١) يقال إنه مولى بنى الحارث بن نوفل بن عبد المطلب .

(٢) قال الأب انستاسى الكرملى أن هذه الكلمة محرفة عن البيزنطية .

ألم على طلل عفا متقادم بين المكيك، وبين غيب الناعم[1]
لولا الحياء وأن رأسي قد مشى فيه المشيب لزرت أم القاسم

فحين سمع مولاه هذا النغم الجديد المؤثر سأله عنه، فأجاب مسجح :

« سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية فثقفتها[2] وقلبتها في هذا الشعر » فقال له مولاه : « أنت حر » .

فدور « مسجح » هنا لم يكن الجمود على الأنغام العربية التي سمعها في « مكة » التي عاش بها ولكنه كان القيام بتطوير هذه الأغاني وتطعيمها بما تقبله الطبيعة العربية، وتتأثر به .

وقد عاش محبوبا في أهل مكة ، ومقصدا للطبقة العليا فيها ، وخاصة طبقة الشباب الذين فتنوا به ، ولم يفارقوا مجالسه ، مما ترتب عليه خشية والي مكة « رحمان الأشقر » على هؤلاء الشباب .

ومن هنا نراه يكتب في هذا الأمر إلى « عبد الملك بن مروان » الذي يأمر هو الآخر بالاستيلاء على ماله ، وإرساله إلى الشام بعيداً عن هؤلاء الذين أحبوا فنه من كل قلوبهم .

وقد سارع إلى تنفيذ رغبة « عبد الملك بن مروان » رغم تمسك الشباب المكي به ، وحزنهم على فراقه ، وفي أثناء سيره إلى الشام وجد بعض الناس يسارعون إلى سماع مغنية تدعى « برق الأفق » فهاجه الحنين إلى مجالس الغناء ، وأقبل على هؤلاء الناس بوجهه الأسود المبتسم سائلا إياهم الضيافة ، والسير معهم . فرحبوا به وصاحبوه حتى حضروا مجلس هذه المغنية .

وفي المجلس سمع كلاما كثيراً عن جمال « برق الأفق » وعن صوتها العميق ،

---

(١) المكيك وغيب الناعم موضعان .

(٢) ثقف الشيء فهمه وأخذه .

ومقدرتها على تلوينه ، فهاجه الحنين إلى رؤيتها ، وأطرق برأسه متذكرا هذه المجالس الغنائية التى يفتتن بها الناس عن أنفسهم ، وهذه الألحان التى كان يسمعها الناس فى كل مراحل حياتهم وفى كل مكان بمكة وحولها ، فهذا راع يلاطف أغنامه ، وهذا شاب يصعد بها نخلته . وهذا طفل يلثغ بها ولا يكاد يحسنها . وهـذا صوت نحيل يسمعه وهناً خلف خباء من شابة أو سيدة ليس يدرى ! .

وتتكاثف هذه الذكريات ، وتتوارد حتى إنه لا يحس بمقدم « برق الأفق » وهى تدخل على الجالسين بوجهها المبتسم ، وعينيها المستديرتين فى عمق كأنهما تديران بالأهداب الكرة الأرضية المستديرة هى أيضا . ومن هنا نراها تتحول بعينيهـا الصحراويتين إلى هذا الوجه المطرق الذى لم يحس بها كأنها تعاتبه ، ولـكنه سرعان ما يستيقظ على مائة عين ، هى كل من فى المجلس ، تتركز على وجهه فيبتسم وكأنه يعتذر بهذه الابتسامة ، ويتألم فى داخله لأنه يعرف مقدار مايعانيه الفنان من انصراف الناس عنه .

وتدق أياد جميلة على الآلات ، ويتصاعد صوت « برق الأفق » هادئا عميقا كالصحراء من حوله . فتدور رءوس الناس ، وتتصاعد من قلوبهم وعيونهم كلمات الإعجاب ، ويلتفت الناس مرة ثانية إلى جموده . وقبل أن يوجهوا إليه كلمة نابية تراه يسرع فيوجه إلى المغنية اعتراضه على تشويه اللحن الذى تتغنى به ، وتصرفها فيه تصرفا يفقده روحه ، وشاعريته ، وعمقه ، فيتململ الناس من حوله ، ويحسون بأن الهواء أصبح راكدا ، وأنهم أساءوا إلى أنفسهم ، وإلى أفراحهم بهذه المغنية ، حينما دعوا هذا الرجل الغريب الأسود البشرة ، ويهم به أحدهم ، ولـكن يدا رفيقة تمتد من المغنية فتسقط اليد الأخرى التى كانت قد أعدت على أطرافها صفعة قاسية .

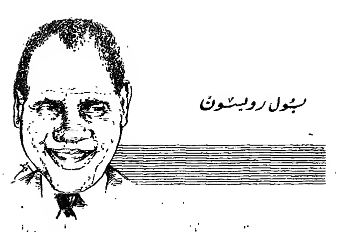
وتحدق « برق الأفق » مليا ، ثم تأخذ فى لحن آخر ، فيتمايل الناس ، ويتعالى

إعجابهم ، وسرعان ما يهبط هذا الإعجاب حينما يحوله الرجل الغريب بصمته إلى سخرية وضيق منه ، وهكذا نراه يسارع إلى الاعتراض على اللحن الجديد ، فيجتمع البغض فى أعين جميع الجالسين ، ويحدث كل واحد منهم نفسه بقتله ، ويحس الغريب بهذا . فيسارع إلى قوله بأنه سيريها كيف تغنى هذا اللحن .

ويغنى « مسجح » فتلين الملامح القاسية ، وتنفرد القبضات المتجمعة ، وتتعالى أصوات الإعجاب بقوة وحماس ، ويود كل واحد منهم القيام ليقبله ويعتذر إليه . ولكنه يخاف على اللحن الذى يمتد ويمتد فيخاطب القلوب والصحراء ، وكل الحياة من حولهم .

وتصمت المغنية ، وتشرب اللحن بقلبها ، وعينيها الجميلتين ، وما يكاد اللحن ينتهى حتى تصيح هو والله لن يكون غيره .. هو « أبوعثمان سعيد بن مسجح » ويقبل عليه الجميع مرحبين ومقبلين . وطالبين منه الإقامة بينهم ، ولكنه يذكر لهم أنه معاقب ، وأنه سائر إلى الشام . فيضيق الناس بالشام ومن فيه . ويودعونه بإكبار وحب ، وفى عيونهم لحن لن يموت أبدا .

وما كان له إلا أن يتحايل حتى يخلص من عقاب عبد الملك بن مروان ، ومن هنا نراه يتحين الفرص حتى يسمع « عبد الملك » صوته فيطير عبد الملك فرحا بهذا الصوت ، ويعرف أنه لابن مسجح فيقبل عليه فى بشر ثم يقول : « قد وضح عذر فتيان قريش فى أن ينفقوا عليك أموالهم » وأمنه ، ووصله ، وكتب إلى عامله ليرد عليه ماله وألا يتعرض له بسوء . . وهكذا عاد الشدو من جديد إلى مكة بعد أن كانت قد صمتت تماماً . . بفضل فنان أسود . .



بين خمسة عشر مليونا من السود فى أمريكا الذين يرجعون إلى أصول إفريقية عاش « بول روبسون » حياته المليئة بالكفاح والجهد والعرق . . كفاح ، وجهد ، وعرق عمر كل واحد منها ثلاثة وستون عاما ، فقد ولد لأبوين فقيرين يستخلصان حياتهما يوما بعد يوم فى مجتمع قاس يدين بالتفرقة العنصرية ، ويعمل دائما على إذلال السود ، وإشعارهم دائما بأنه يجب عليهم أن يعودوا إلى إفريقية لأنهم دخلاء على أمريكا . بل دخلاء على الحياة نفسها !

وفى إطار هـذه الحياة الحزينة نما الطفل نموا مضطربا مليئا بالقلق ، مشوبا بالأحداث ، والذكريات القاسية التى تحكى مأساة السود مع البيض .

وقد كان من الطبيعى جداً أن يطوى نفسه على الحقد ، والبغض اللذين ذاقهما من المجتمع ، ولكنه حمل قلبا كبيرا يسع البيض والسود معا ، بل يسع كل ما هو جميل ، وخير فى الحياة ، وقد عرف « بول روبسون » حياة المواطن الكادح البسيط فى الحدود التى يسمح بها المجتمع الأمريكى لنمو الشخصية السوداء ؛ فتراه يشتغل عاملا زراعيا بإخلاص ، يحمل أعواد السنابل وكأنه يعانقها ، ويضرب الأشجار فى الغابة وفى أعماقه شعور من يأسى لها ، ويقود الماشية فى رفق ورحمة ، وقد يرفه عنها بالغناء الساذج الحزين الذى يحكى الحياة من حوله ، ومن هنا تلون صوته بالطبيعة الأمريكية الزاهية .

ثم يتلون صوته مرة ثانية بالخوف والإشفاق حين يجبر على ترك العمل فى الزراعة إلى العمل فى حمل الأحجار ، فقد كان يغنى للعمال المجهدين من حوله ، ويهون عذابهم بغناء واهن ، رتيب كأنه صدى خطوات العمال المجهدة وسط الأحجار القاسية الغليظة !

ثم نمت أخيرا فى صوته طبقة لحنية جميلة ملونة بالسلام ، والحرية ، وحق الإنسان فى أن يحب ، ويفرح ، وينتج ، وقد ساعد على ترسيب هـذه الطبقة فى صوته اشتغاله خادما فى أحد المنازل ، فقد تشربت روحه السكينة التى تحف بالأجواء العائلية ، وهـذا المرح الجميل من الأطفال الذين يتسلقونه ثم يطلبون منه أن يغنى ! وهكذا يعتبر النماء ، والإشفاق ، والسلام بعض المكونات للشعريات الصوتية التى يتميز بها صوته الدافىء العميق .

ثم نراه ينطلق من نطاق الخدمة إلى الحياة من حوله على الرغم مما كان يلاقيه من عزلة اجتماعية فى المحيط الذى يباشر فيه وجوده ، بل يحارب عمليات الضغط على السود فى أمريكا ، وكل مكان بتلك الأغنية البناءة التى زفها للعالم فى عام ١٩٣٦ والتى يقول فيها :

« الرجل الأبيض لا يستطيع أن يصبح حرا .
ما دام أخوه الأسود عبدا .
بلادنا قوية .
بلادنا شابة .
ولكن أعظم أغانيها لم تزل فى الكتمان ! » .

ثم تتداح الحياة فى أعماقه فنراه يتألم للمظلومين ، ويؤنس المكدودين فى كل مكان بيضا ، وسودا ، وبهذه « الرسالة الصوتية » أصبح يؤنس كل الأحرار فى أكثر بلاد العالم فكان الأسبانيون يرددون أغانيه ورصاص الفاشية يخترق صدورهم ،

وكان الصينيون يقبلونها بشفاههم وهم ينتزعون أقدام اليابانيين من وطنهم ، وما زال العمال يرددون أغانيه فى كل مكان وهم يرفعون حجرا ، أو يحصدون غلة ، أو يديرون جهازا ، أو يقدمون للبشرية شيئا جديدا .

ومن بين هـذه الأغانى فى بلاد العالم كان وجهه الوديع الأسود يرفرف أمام عيونهم ، فيغمرونه بالحنان ، والحب ، والطيبة !

وقد أرادت « المكارثية الأمريكية » أن تصادر كل هـذه الإنسانية المتدفقة فى صوته ، فحرمت عليه الخروج من أمريكا ، وبخاصة بعد أن انضم إلى حركة السلام العالمية عام ١٩٥٠ ، ولـكنه فى الوقت الذى حرم عليه الخروج فيه كان صوته مع الناس فى كل مكان ! صوته يغنى للانسان فى عمق ، وحرارة ، ودفء حتى لقد أصبح صوته تراثا إنسانيا ضخما يعتز به القرن العشرون .

وقد عمق هـذه المشاعر الإنسانية فى صوته ذلك الميراث الضخم الذى ورثه من إفريقية ، هذا الحنين الدائم الذى كان يجذبه إليها ، ثم أخيرا هذا اللقاء الخالد الذى تم بينه وبين الزعيم الـكينى «جوموكنياتا» فقد اكتسب منه بول روبسون الـكثير من المشاعر المضيئة ، ومن هـذا الـكثير الذى اكتسبه من « جوموكنياتا » تلك الأغانى الإفريقية الرائعة التى رددها فى فيلم « مراكب النهر » ، والتى كان يسمعها من فم الزعيم الـكبير وعيناه مخضلتان بالدموع ، ثم يهتف بين الحين والحين « لست أنت الذي تغنى وإنما إفريقية هى التى تتنهد بين شفتيك ياجومو .. ! »

وقد عانق هـذا المغنى العظيم كل العالم فى صوته ، وعاش حتى رأى مجده فى جمعيات تعقد باسمه ، ودول تحتفل بعيد ميلاده !

وقد وجد صوته صدى فى عالمنا العربى ، فوجدنا الشاعر « كاظم السماوى » يغنى له هو الآخر بهذا الشعر :

شق المدى الأرحب شق المدى .
يامليها فى اللحن دفء الصدى .
« أنشودة الفولجا » وكم رددا .
غنيتها اليوم تناجى الغدا .
هدارة تستبق الموعدا .
إن لها فى غدنا مولدا . !

كما نرى هذا الأثر فى قصيدة الشاعر الموزمبيقى « كالونجانو » . . تلك القصيدة التى يقول فيها :

« أنا هنا
ولكنى مع كل الأحرار
مع روبسون وسيزار
وفى « الصبى الأسود »
وعند كل إنسان يؤمن
بأننا نصنع مقومات الحياة
ونصارع الموت فى سبيل البقاء
. . والذين يؤكدون
قرب زوال الليل
وطلوع النهار ! »

ماريا اندرسون

فى أمريكا حيث لا تحترم البشرة السوداء ، وحيث يمكن لأى أبيض تافه أن يشد قامته ، ويسخر من كل أسود حتى ولو كان هذا الأسود علما من أعلام السياسة أو الفن . . فى هـذه البلاد عانت فتاة صغيرة من القسوة والاحتقار ، وفى يوم من الأيام خلفت وراءها مدينة « لينشيورج » من أعمال ولاية فرجينيا بلا دمع يتألق فى عينها ، أو ذكريات سعيدة تبطىء من خطوها وهى تسير فى إصرار وأمل ، بينما تتخايل أمام عينيها مدينة « فيلادلفيا » لعلها تلاقى بها الأمن ، والسلام .

وفى مدينة « فيلادليفا » تلتقى بأسود مثلها يعمل فى إحدى غرف التبريد بسوق « ذيدنج » ، كان أشد ما عطفها عليه أنه كان مثلها فقيرا ، مكدودا ، ضائعا فى الحياة من حوله . وطلب كل منهما الأمان لنفسه من سخرية المجتمع الأمريكى ، وكانا أن تزوجا ، ثم انجبا « ماريا اندرسون » . . انجبا الصوت الماسى الذى تغنى بالحب ، والحياة ، والسعادة .

وقد اهتدت الأسرة إلى سكن فى شارع « كولورادو » ، ورغم أنه كان لايفى بحاجات المنزل الحديث ، وكان خلوا من الحمام ، إلا أن « ماريا » كانت سعيدة به ، لأنها تعلمت أن السكنى فى المنزل المشترك هى فى الواقع تقسيم لنفسها ، وما كان أشد حاجتها إلى أن تحس بالتكامل النفسى لتضفى على صوتها الطمأنينة التى تتمتع بها من الداخل ، وقد كانت تنتظر يوم الأحد دائما بشوق لتصحب والديها إلى الكنيسة لتستمتع بالغناء ، وبالموسيقى ، وحينما بلغت السادسة نراها تنضم إلى جوقة مرددى الأناشيد بالكنيسة ، ونراها تبرع فى تأدية لحن « عزيز على قلب الراعى » بطبقة « الألتو » العميقة ، الباسمة !

ويزداد دخل الأسرة فيدخل « البيانو » البيت ، وتعكف على التمرين فتصبح في غير حاجة إلى « النوتة » في كثير من الألحان ، وتقف لأول مرة في حفل أقامته عمتها لتكريم أحد القسس وإذابها تغنى غناء دينيا مؤثرا ، فقد عرفت تعبر عن المعانى الدينية الكبيرة رغم أنها لم تتعد العاشرة من عمرها .

وبينما هى فى غمرة السعادة يطرق الموت باب البيت فى شارع « كولورادو » ويخلفها بلا عائل هى ، وأمها ، وأختها الصغيرة « أليس » وكان أن انتقل جميعهم إلى بيت جدتهم ، واضطرت أمهم إلى العمل لكى تواصل تعليمها فى معهد « وليم بن » بعد حصولها على الشهادة الثانوية ، وقد قامت فى نفسها فى هذه الفترة رغبة دراسة الطب لأنها رأت أن السرطان لن يقف عند حد أبيها ، ولكن بعد أن هدأ حزنها ذكرت أنها ستداوى الناس بصوتها !

وهكذا نراها تتوجه بكل قوتها إلى دراسة الموسيقى فتتعلم الكثير على يد الدكتورة « لوسى ولسون » ، والأب « باركس » ، والمغنى « رولاند هانز » ، والمغنية الزنجية « مارى سوتدرز باترسون » ، وكثير من الأساتذة المتخصصين ، وكان أول لحن لمعت فيه فى هذه الفترة هو لحن « الوردة والحمامة والزنبقة » لشوبرت . ثم أرادت أن تلتحق بإحدى اكاديميات الموسيقى ، ووقفت فى صف طويل لتتلقى طلب الالتحاق ، ولكن الموظفة المختصة أهملتها ، وحين انصرف الجميع ، ذهبت مع تمتعها بكثير من الشهرة فى هذه الفترة إلى الموظفه المختصة ، وذكرتها برغبتها فى الحصول على طلب الالتحاق ، وجاءها الرد ممطوطا ساخرا « كان يجب أن تدركى من نفسك أننا لا نقبل السود ! » وكان أن ردت عليها « كنت أظن أن التفرقة العنصرية لم تصل بعد إلى حرم الموسيقى ! »

ثم كان التقاؤها بالفنان « يوجينى » الذى دربها تدريبا شاقا على أداء الألحان ، ووضع يدها على حقيقة فى صوتها وهى يجب أن تؤدى الألحان البطيئة ، وتتخلص

من أغانيها الحبيبة إلى نفسها مثل « السلام لله يامريم » لفردى ، و « أيها المنقذون الأعزاء » لهاندل .

ثم استمعت إلى نصيحة « مسز باترسون » فى أنه يجب أن يصحبها فى أغانيها عازف على « البيانو » وكان أن اهتدت إلى العازف الشهير « بيلى كنج » الذى ساعدها على اللمعان فى فيلادلفيا ، وواشنجتون ، ولكن نيويورك حطمت الهالة التى تحوطها ، وسخرت منها وكان أن رجعت إلى « فيلادلفيا » منهارة ، ولكن « بيلى كنج » أخذ يشجعها ، وظل يقف إلى جوارها وكان أن توثقت الصلة بينهما وتزوجا .

ثم كان أن أعلنت جمعيــة « لوبسوهون » بنيويورك عن مسابقة لأفضل الأصوات الأمريكية ، فتجدد الأمل فى نفسها ، وسافرت ، ووقفت أمام لجنة المحكمين ، وإذا بها تفوز بالمرتبة الأولى ، ويكبر الأمل فى نفسها فتصمم على الطواف بأوروبا ، وحين تسعد الملايين فى لندن نراها لا تنسى أن تقابل فى إقليم « ساسكس » الأستاذ « ريموند فوزموهلن » أعظم موهبة فى دراسة الأصوات لتتعرف على رأيه فيها ، وحين تغنى أمامه أغنية « الشفق الأحمر » الألمانية ، يسألها «هل تحسين بكلمات هذه الأغنية» وحين تذكر له « أنها لا تعرف شيئا من كلماتها» ينصحها بأنه يجب ألا تغنى إلا ما تعرفه وتحس به وتغنى أمامه أغنية « الصباح » فينفعل ، ويدق بعصاه الأرض وهو يصيح « مع أنى لم أتوجك بعد إلا أنك تغنين كملكة ! »

وبعد أن عادت « متوجة » إلى أمريكا ، وأخذ الرأى العام هناك يحس بها ، يتقدم إليها « داى فيلد » بعرض للسفر إلى ألمانيا ، فتهلل لهذه المفاجأة لا لشىء إلا لأنها ستقابل هناك أستاذ الموسيقى العالمى « مايكل راوشيش » ، وتأخذ رأيه فى صوتها ، وتستمع إلى نصائحه ، وهناك عاشت مع الشعب الألمانى أجمل فترة ، وبخاصة

حينما كانت تغنى له بلغته أغنية « الشفق الأحمر » .

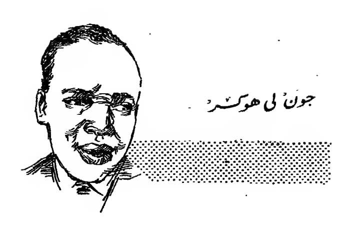
وقد عجبت حين كانت تسمع فى الترويج أن الناس هناك لم يشهدوا من قبل وجها أسود يغنى بهذا العمق ، والتلاوين الصوتى ، وأنهم يطلقون عليها « قطعة الشوكولاته » ، و« القهوة باللبن » ، ولكن كل هذا لم يمنع صوتها من أن يتردد فى « استكهولم » ، و« هلسنكى » ، و« كوبنهاجن » وكل الدول الاسكندينافية .

وقد كانت عودتها إلى أمريكا انتصارا لكل الملونين ، وبخاصة حينما عزمت على الغناء فى « قاعة الدستور » التى يرفض الأمريكيون تأجيرها للزنوج ، أو الدخول فيها ، ولكن القضية أخذت دورا كبيرا فى المجتمع الأمريكى ، واضطرت بسببها « مسز روزفلت » أن تستقيل من جمعية بنات الثورة حينما أصر الأعضاء على عدم السماح لمارى بالغناء ، فى هذه القاعة ، وأصرت « مارى » بدورها على الغناء حتى تحقق لجنسها شيئا من تحطيم بعض الحواجز المقامة أمامهم ، وقد نجحت أخيرا وغنت فى هذه القاعة « للانسان » بصرف النظر عن لون بشرته !

ثم عزمت على زيارة الشرق ، وفى اليابان استقبلت أجمل استقبال فرأت المسئولين يقابلونها فى المطار ، والإذاعة تقطع برامجها لتعلن نبأ قدومها ، والإمبراطورة تدعوها إلى زيارتها فى القصر ، وقد أثر فيها هذا اللقاء أكثر مما أثر فيها لقاؤها بـ « البيرت اينشتاين » ، وملك إنجلترا ، وكافة الرؤساء الذين كانوا يحفون للقائها .

وقد وصلت إلى قمة تألقها حينما غنت فى عام ١٩٥٤ فى مسرح « المتروبوليتان » الذى لم تصل إليه مغنية زنجية من قبل !

والمؤشر فى حياتها أنها صممت على دراسة كل ثقافة العصر الموسيقية ، وعلى تحطيم بعض التقاليد المتوارثة لصالح السود فى أمريكا .



لم تـكد تمضى عدة سنوات على يوم ٢٢ من أغسطس عام ١٩١٧ — وهو يوم ميلاد « جون لى هوكر Jon Lee Hoker » بمدينة كلاركس رال — حتى كان قد تشبع بمأساة تعيش فى ضمير الزنوج .

على أن المأساة فى أول الأمر لم ينقلها إليه صديق ، ولم يقرأها فى كتاب ، ولم يجهش بها والده الذى كان يرجع من عمله مكدوداً ، فقد كان من عاداته أن يوشىّ أحزانه بلون وردىّ حتى لايضفى على البيت الفقير عبئاً فوق الأعبـاء الملقاة عليه ، ذلك لأنه كان يتلقى هـذه المأساة مكتومة فى الشارع الضيق ، أو متعبة فى الأفق الحزين ، أو منزوفة من الجراح التى يتلوى تحتها الزنوج وهم فى طريقهم إلى المعامل الجهمة ، أو الحقول الصامتة !

ذلك لأنها كانت ميراثا حزينا تلقوه عن آبائهم الذين قضوا نحبهم تحت الشمس ، والسياط ، والسخرية ، فقد كانت السخرية هى الأخرى تعذبهم ، ثم تغرس فى إنسانيتهم أكثر من خنجر للموت !

وكثيرا ماساءل « جون لى هوكر » والده عن سر هذا الشجن الدامع الذى ينطلق أنات ، وآهات ، وصرخات بدون كلمات ! أترى الحروف لاتستطيع حمل كل هذا العذاب المشحون فى النفس ؟ أترى الألفاظ قد احترقت داخلها حينما اندلعت المعانى

تصرخ ، وتتألم ؛ لقد عذب كل هذا الطفل الصغير ، ولـكنه ما يكاد يرى سحابة الألم التى تـكسو وجه والده حتى ينصرف سريعاً عنه ليبكى وحده !

ولـكنه صمم أخيرا على أن يعرف سر هـذا النوع من الغناء الصامت الذى لايعرف شيئاً عنه سوى أن اسمه « Hollers » فقد عاد فى يوم من الأيام ، وفى يده ورقة تقول إنه نجح فى عامه الدراسى ، وما كاد والده يقول له « تخير لنفسك هدية فى حدود ميزانية الأسرة الضئيلة » حتى اقترب منه ، ثم ابتسم فى وجهه ، وقال له : « إن هديتى هى أن تقصَّ على حكاية الحزن العميق الذى يغلف أغانى الـ « Hollers » وهنا دمعت عينا والده ، ثم أطلق صوتاً من هذه الأصوات التقليدية الحزينة ثم قال له :

« من زمن بعيد جداً يا ولدى حينما اغتصبنا من إفريقية ، ثم ركبنا البحر تحت وهج الشمس ، وضربات السياط امتلأت نفوسنا بالشجن ، فقد تركنا الآباء ، والأبناء ، والذكريات ، تركنا الوطن . وحين تقيأتنا المراكب عـلى الشطوط الأمريكية كنا قد فقدنا إفريقية مرة أخرى ، لأن الـكثير مناقد ألقى فى البحر أمامنا بعد أن أثخنته السياط ، والاحتقار ، والحنين إلى إفريقية .

وفى هذه البلاد الغريبة وجدنا ألوانا من التعذيب لم نـكن نحلم بها كأن فقدنا لإفريقية لم يكن كافيا لتدمير نفوسنا ، فقد أرهقونا بالأعمال الشاقة فى الحقول طيلة النهار ، فإذا ماعدنا قمنا على خدمتهم فى منازلهم طيلة المساء ، فإذا ما أخلدوا إلى الراحة كلفونا بالسهر على حيواناتهم التى كنا نحسدها على ماتلاقيه من راحة ، ونوم وطعام متوافر !

وقد كنا أمام هذا الضغط الذى يثقل نفوسنا ، نحاول أن ننال قسطا من الراحة يمسك علينا الحياة ، فاخترعنا هذا النوع من الأصوات المسمى Hollers والذى يتـكون من عدة همهمات معذبة تحتوى على عدة معان تتضمن : إن السيد قادم ،

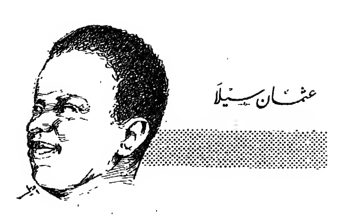
وخذ حذرك ، والحيوان فى غير موضعه ، وكيف حال ابنك المريض ؟ وهل تناولت العشاء الليلة ؟ وإلى متى سيظل هذا العذاب ؟ وما أكثر شوقى إلى إفريقية ؟

ومن كل هذه الحزمة من المتاعب تتكوّن هذا النوع من الغناء ، أو هـذا الفولـكلور الشعبى الذى يختزن الـكثير من متاعبنا ، ودموعنا ، وهواننا ، ثم أخيراً هذا الحنين المـكتوم للجوهرة السوداء التى اغتصبت منا ! »

تلقى « جون لى هوكر » كل هذا العذاب فى نفسه ، وانطوى عليه كلؤلؤة ثمينة ، وحمله معه إلى فرنسا حينما واتته الفرصة فأكمل تعليمه هناك ، ثم عاد به أخير إلى أمريكا وفى نفسه رغبة لأن يسمع هذا الصوت المظلوم إلى كل العالم ، وسرعان ما حوله إلى ألحان ناجحة كان يعزفها بنفسه على الجيتار ، وما يكاد يستغرق فى غنائه حتى يرى نفسه يدق الأرض بقدميه ـ وهذه عادته ـ ويحس أنه يعـبر عن كل الإفريقيين فى أمريكا ، فهو يتصورهم والسياط تنزعهم من ذكرياتهم ، ثم تلقى بهم إلى البحر ثم تطرحهم على أرض غريبة . وهم فى كل هذا ينطوون على كل شىء فى إفريقية وقد يكون هذا الشىء غابة أو نهراً ، أو حقلا ، أو خوفا من المجهول !

وما يكاد ينتهى من أغانيه حتى يرى نفسه سعيدا بالوجوه السـود التى تحف به وعلى كل خد منها خيطان غليظان من الدموع ، ويقولون : إن الخيط الأول حزن على إفريقية ، والخيط الثانى حزن على مصيرهم فى أمريكا ، وما أكثر ما تتدفق هذه الدموع حينما يرفع صوته بهذه الأغنية الفلـكلورية التى تقول :

« . . . لما اضطررت إلى التشرد
وركبت مع صديقى قطار البضائع
أصبحت أمى وحيدة
تجلس على ركبتها ، وتبكى
تبكى علىّ ! ! »



شخصية « عثمان سيلا » ليست من الشخصيات التي تتوهج الآن على صدر القارة والتي تتزعم عمليات التجمع ، وانتزاع النصر ، وتأكيد إفريقية ، إنما هي شخصية المواطن البسيط الذي أحس أن كل شيء في بلاده محتكر لوجه أبيض وعينين زرقاوين ، فأراد هو الآخر أن يقاوم هذه الفكرة بفكرة تناهضها في بلاد بعيدة عن بلاده ، وكان له ما أراد في حي « سانت ميشيل » حيث هذا المكان الذي يحمل رقم (٣٥) .

وكثيرا ما كانت تحلو الذكرى لعثمان سيلا Ousmansilla حينما تخف كثافة الليل ، وتشف الظلمة كستار أوقد من خلفه النور ، وتشم للفجر الجديد رائحة طيبة في آفاق باريس . ففي هذا الوقت بالذات من كل ليلة كان يمكنه أن يرتدي معطفه ، ويحيي العاملين معه ، ثم يسير في رفق تحت ضوء واهن يرسم على كل من يمر تحته كلمة « ساموري Samory » .

وتتداح كلمة « ساموري » هذه في ذهنه ، وتشده بعيداً بعيداً عن الأفق الذي يغرد من فوقه ، والأرض التي تتناثر فوقها كرات الثلج ، وهكذا تغيم المناظر من حوله ، ويحس أنه اجتازها إلى أرض بعيدة حارة في قلب القارة الإفريقية ، حيث

مدينة « داكار » التى ولد فيها من والدين فقيرين يعتصران الحياة من حولهما اعتصارا حتى يستطيعان الحصول على ما يمسك عليهما ، وعلى طفلهما الصغير الحياة فكل شىء من حولهما يملكه الفرنسيون ، ويضعون عليه عيونهم ، وأسلحتهم حتى لقد أحس الأهالى أنهم يتنفسون من خلال حرابهم ، وأنهم يعيشون غرباء فى بلادهم !

ويجاهد « عثمان سيلا » نفسه وهو يتذكر نفسه عاريا ، وجائعا ، وممزق الروح ، ثم يتذكر هـذا اليوم السعيد الذى دخل فيه المدرسة الشعبية الفرنسية outre-mer فقد أحس فيها بشىء من الراحة حينما وجـد نفسه يستطيع أن يتناول طعامه ذلك لأن البحث عن الطعام كان يقلقه دائما ، ويصيب روحه بخدوش .

ثم يتذكر كيف كان ذكيا ، ومتلهفا على تلقى العلم ، ولـكن الفرنسيين كانوا يقفون بالمواطنين إلى مدى لا يتجاوزونه من المعرفة ، ويدفعه كل هذا إلى السفر إلى باريس ، وهناك يحس بمرارة الجوع مرة أخرى وتنمو فى ذهنه فـكرة أن يعثر دائما على طعام ، بل أن يوفر هذا الطعام لـكل الناس ، ومن هنا نراه يكدح فى هذا البلد الغريب حتى يكون لنفسه شيئا من المال ثم يكون له أخيرا « ساموري » .

وساموري هـذا ليس سوى الإمبراطور الإفريقى العظيم الذى كان يحكم إمبراطورية الماندونجو Mandingues فى نهاية القرن التاسع عشر ، ولـكنه أراد أن يكون فى باريس حروفا من نور تتوهج على مطعم من أرقى المطاعم فى حى « سانت ميشيل » على أن « عثمان سيلا » لم يقف عند حدود الاسم ، وإنما جعل من مطعمه صورة مصغرة من إفريقية ، فالجدران على هيئة الغابات ، والأنوار على هيئة شموع متوهجة كأنها تستمد حدتها من المناطق الاستوائية ، والتحف رسوم تنقل إلى المشاهد سمات كثيرة من سمات إفريقية ، وكثيرا ما تستخدم الموسيقى لتساعد الزوار على الانتقال الطبيعى إلى المناطق الحية فى إفريقية بحيث تستطيع أن تجد نفسك

متجولا إلى إنسان يشق طريقه بحذر بين أدغال الكونغو ، أو راقصاً حول نار فى داهومى ، أو شاعراً بغربة فى مدينة جوها نسبرج ، أو متوثباً فى فرحة على نهر النيجر !

وقد يقوم الطعام نفسه بهذه الرحلة المتوترة حيث تجد أمامك سمكا مصنوعا على طريقة أهل مدغشقر ، أو لحما مشويا على الطريقة السنغالية ، أو عيشاً مصنوعا من الموز على طريقة أهل غانة .

ويتذكر « عثمان سيلا » كل هــذا فى طريقه ، وإذا بالطمأنينة تملأ نفسه فهو قد أعطى للناس إفريقية التى يحبها ، وأحاط نفسه بالذكريات العزيزة التى عاشها فى القارة .

وما يكاد يصل إلى باب بيته حتى يلح عليه هذا السؤال « هل يحاول بعمله هذا تأكيد روح بلاده ؟ أم يرد على الأجانب الذين يملأون إفريقية ؟ أم يرضى شيئاً أثيرا فى نفسه ؟ »

وعلى الرغم من أن هذه الأسئلة تداعبه كل ليلة قبل أن ينام إلا أنه لا يشغل نفسه بالإجابة عنها ، فهو يخرج منها بابتسامة تملأ وجهه الأسود ثم يغوص من جديد فى عالمه الإفريقى حيث يحلم دائما بطفولته العارية الجائعة ، الممزقة !

ميشيل دى أنانج

مع أن « ميشيل دى أنانج Mihael Dei Anang » قد ولد فى أوائل هذا القرن بغانة ، إلا أنه ظل يحمل فى نفسه الآلام يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ، وقد ظلت هذه الآلام تتكدس فى نفسه ، وتوغل فى روحه حتى استطاع أن يقول « كلمة القارة » .. أن يطلقها من نفسه مدوية ، مضيئة ، ودامعة فى الوقت نفسه !

فقد ألقوا عليه فى مدرسة التبشير أن بلاده بلا ماض ، ولا حضارة ، ولا إسهام فى الفكر العالمى ، وأنها ظلت سوداء داكنة حتى تساقطت عليها قطرات الضوء بمجىء الرجال البيض ، وأن كل إنسان أبيض يمثل نقطة ضوئية فى الكيان الأسود الكبير !

وقد ظلت هذه الفكرة كالخنجر تذهب وتجىء فى نفسه عن ماضى القارة ، وما أشد ماروع من جديد حينما أقبل عليه مدرس الأدب الإنجليزى فى جانب من الفصل الذى كان ينزوى فيه دائما ، ثم قال وهو يحدق فى وجهه الأسود ليرد على سؤال له بشأن مستقبل الثقافة فى القارة « . . دى أنانج إن قارتكم كما ذكرت من قبل لا ماضى لها ، ولن يكون لها مستقبل إلا من خلال أطراف أصابعنا ، ذلك لأن هيكل بعثكم لن يقوم إلا إذا شيد من حجارة أوروبية ! »

وحين تخرج « دى أنانج » من مدرسته ، واضطر إلى ممارسة ألوان من العمل ليسهم فى إطعام أسرته لم ينس أبدا ما قاله كل أساتذته ، وعزم على أن يرى قارته بعينيه ، على أنه لم يكن له صبر على القراءة فى أى لون من ألوان المعرفة سوى القراءة فى الأدب ، وبخاصة الشعر .

ونحن نراه يفتش فى تراث بلاده فيجده حافلا بالأمثال العملية المنحوتة من

التجربة ، وبالحدوته التى تدل على الخصب فى الخيال والذى ينشدها الراوى واقفا ، ثم تشاركه الجوقة فى بعض المقاطع ، ثم يدخلها الغناء ، والرقص ، بحيث تتكون من كل هذا وحدة فنية تسهم فيها بالتلوين كل هذه الفنون ، كما يجد بلاده غاصة بالأغانى الشعبية التى تروى الكثير عن الإله «نانا» العظيم الذى عرف قبل الإسلام والمسيحية فى البلاد ، والأرواح العظيمة المعروفة باسم «نانا توم اسامانيوم» ، و«فيوسومو أيسو» إله نهر ايسو ، و«بوسومبرا» إله نهر برا ، و«بومسوموتانو» إله نهر «تانو» ، كما تدور بعض هذه الأغانى حول الزعيم ، والطبيعة ، وظروف الحياة هناك .

وما أكثر ما يصاحب الغناء عندهم العمل ، وهناك أغنية شعبية متوارثة تقال عند البدء فى أغلب الأعمال وهى «.. سيانا نانا نوم بى نوفيرى تيت اودوما نسكوما» ومعناها «هذا نفس الشىء الذى كان يفعله آباؤنا وأجدادنا منذ عصر آدم !» وحين انتهى من دراسة تراثه نراه يخرج بحقيقة جديدة معناها أن الشعر فى إفريقية نتاج طبيعى لحياتها ، والظروف القاسية التى مرت بها ، فرغم أن الأوروبيين قد زوجوا أن الشعر الجديد فى إفريقية يرجع فى نسبة إلى الشعر الأوروبى ، وأنه فى كل مكان بها صورة مشوهة للشعر الغربى ، إلا أنه يجد أن الشعر فى الجنوب يعتبر تسجيلا دقيقا لخطى الحياة فى هذه المنطقة ، فهو يصرخ بما يلاقيه الإفريقى من اضطهاد وسخرية ، وتفرقة عنصرية ، وبكاء على الحياة الطليقة التى كان يعيشها فى الغابات ، والمراعى ، والقرى الصغيرة ، بينما يتلون فى شرق القارة بالأحداث السياسية ، والظروف البيئية حيث يقل فى هذه المنطقة الشعور بالاضطهاد ، والتفرقة العنصرية ، أما فى الغرب من القارة فيزدهر الشعر كأروع ما يكون الازدهار ، ويرتبط بقوة التحرر التى أضاءت كل هذه المنطقة ، وأخذت تبعث بوميضها إلى أكثر من مكان .

وترتاح نفس « دى انانج » حينما يجد أن الشعر فى كل هذه المناطق شعر إفريقى لحماودما ، ويستخفه الطرب فيردد بينه وبين نفسه قصيدة « دافيد ديوب » التى يقول فيها :

« إفريقية ياقارتى
يابلاد المحاربين الأبطال الذين حاربوا
فى بلاد الأجداد
أنا لم أعرفك أبداً
ولكن دمك يملأ نظراتى
دمك الأسود يغمرا الحقول
دم عرقك
عرق عملك !
إفريقية حدثينى
إن ظهرك المنحنى
إن الدموع تحت ثقل الخضوع
. . ترتعش فى خطوط حمراء وهى تقول « نعم ! »
تقولها للسوط الذى يلهبها فى الظهيرة
وعندئذ يجيبنى صوت حزين
يجيبنى صوتك
« أيها الولد المندفع
إن الشجرة العملاقة الشابة
الشجرة التى ترقد هناك
وحدة فى فخار بين الأزهار الذابلة
هى إفريقية !

إفريقيتك التى تولد مرة ثانية

تولد من جديد فى عناد وإصرار

بينما تكتشف فاكهتها شيئا فشيئا

رائحة مرة هى رائحة الحرية

فالحرية لها رائحة مرة ! »

وهكذا يكتشف « دى انانج » بلاده من الشعر ، ويجد أن لهذا الشعر ميزات خاصة : وهى روح الحزن الذى تغلف مضمونه ، والبساطة المحببة التى تبتعد عن الزخرفة ، وتسجيل الواقع المر الذى طاف بالقارة ، والانعطاف نحو الماضى ، والتأثر بالفولكلور ، بالإضافة إلى النغم العنيف ، والصورة الناطقة . ومن هنا نراه يحس أنه لابد أن يقول كلمته شعرا ، ويصدق هذا الحدس حينما نراه يخرج على العالم بديوانه إفريقية تتكلم «Africa speaks» الذى صدر فى أكرا عام ١٩٥٩ والذى يقول فى مقدمته « إن الشعر فى إفريقية يجد أرضاً خصبة وغنيــة ، وذلك لأن الإفريقيين قوم لايستطيعون إخفاء حقيقة مشاعرهم ، ولأنهم يعانقون كل شىء فى بلادهم ، ولأنهم يتركون لأحاسيسهم العنان فيضحكون أو يبكون من غير تحفظ ، وهم فى فرحهم وحزنهم مثال صادق على البراءة والطيبة .

ثم إنهم يعيشون فى جو حافل بالغناء والرقص ، وألوان عديدة من الفن وكل هذا لايشكل فرحهم فقط ، وإنما يشكل حزنهم كذلك .

وسواء أخضعوا للانجليز أو الفرنسيين أو البرتغــال فإنهم تحت كل الظروف يقولون كلمتهم التى تعبر عما يعيش فى أعماقهم »

وما أجمل القصيدة الأولى فى الديوان ، والتى أخذ منها الديوان عنوانه فهى تقول :

« فى صفحات الماضى . . منذ وقت بعيد

وفى الأيام التى لم تعرف الإيمان

حينما كان الخيال ضحلا ، والمعرفة ضائعة
أطلق الناس على « إفريقية السوداء ! »

* * *

إفريقية السوداء ؟
أنا الذى رفعت أهرام الملوك
ووضعت قبضتى القوية
على ثروات القياصرة المهزومين

* * *

إفريقية السوداء ؟
التى ربت طفل الحضارة الكثير التساؤل
هناك على الشواطىء المتعرجة للنيل واهب الحياة
وكان لها الفضل على عالم الغرب المزدحم
بما وهبته من ثقافة لليونان !

* * *

إن الوهج اللامع للحديد والصلب
كثيرا ما يطفىء القيمة الحقيقية لكل ماهو لامع غيرهما
ولذلك فعندما ازدريت سهامى ، وأقواسى المقدسة
ولم أهتم كثيرا بالحديد ، والصلب
أطلقوا على كلمة « السوداء ! » فى كل بلاد العالم
. . ولكن الفن الهادىء
فن التفكير معا ، والحياة معا
أغلى قيمة من الحديد والصلب الباردين !

* * *

إفريقية السوداء ؟
أنا حفظت الكنز الذى لم يستطع إنسان تقديره
فى الأعماق حيث الجذور المدفونة
لأشجار النخيل السامقة ذات الحفيف !

* * *

إفريقية السوداء ؟ .
الفجر هنا .
أنظر إننى أرى الشروق الدافئ فى الشرق .
ويومى سيأتى قريبا ! »

فالشاعر فى هذه القصيدة يومئ إلى ما فى ماضيه من روعة وجلال ، وإلى ماله كذلك من فضل على ثقافة هؤلاء الذين يرفضون ماضى القارة وثقافتها رفضا تاما ، ثم يضع أفكارنا على القيم التى تعيش فى أعماق القارة ، ولا يضيع وقته فى التذكر ، والفخر بما للأجداد ، وإنما يفتح نافذة ذهبية على المستقبل ، ويسلسل بفنه خيوط الفجر الجديد الذى أظل قارته ، بل يتعدى الفجر إلى الشروق الدافىء الذى غمر نفسه ، وبلاده !

وتلح عليه فكرة التأريخ للقارة ، وتقديمها للقارئ بعيدا عن التطاريز ، والتأثرات السطحية التى وقفت عند خصائص القارة الصلبة ومن هذا اللون قصيدة « إلى أبناء ساحل الذهب » التى يقول فيها :

« إفريقية .
هذه اللؤلؤة المستقرة فى الأعماق .
داخل البحر القرمزى .
وهذا المضيف الرقيق الذى رحب .

بجميع المجازفين من كافة البلاد .
بإفريقية التى بحثت عنها جميع الشعوب .
ونقّبت عنها كما تنقب عن جوهرة غالية .
ولكنها حفظت من كل الشرور .
لأنها ادخرت فقط لتجارب « الإله » .
. هذه اللؤلؤة المدخرة هى قارتنا .

* * *

اسمع عندئذ القصة التى رويت .
عند الهجرة العظيمة من الشمال .
حينما لم تكن هناك دولة .
ولم تكن هناك كذلك حدود تفصل بين « إفريقية الأم » .

* * *

على الحجر الرملى للأرض الذى يرقد .
بين نهرىْ النيل والنيجر .
يوجد السهل الذى يسميه الآن السياسيون « السودان » .
الذى امتد بعيدا وبعيدا .
قبل أن يصل الغلمان البيض المسلحون إلى ساحلنا .

* * *

هناك حيث كان يسكن آباؤنا .
وحيث كانت توجد الطمأنينة بالغابة .
وحيث الشواطىء الخصبة للنيل .
عاش أجدادنا يجنون المحاصيل الوفيرة .
لأجل طعامنا !

* * *

أجدادنا الذين عاشوا لحظات حاسمة .

وبنوا الأهرامات العملاقة على أنغام المنشدين المصريين -

ووفق تصميمات هندسية دقيقة .

أجدادنا هؤلاء لم يرغبوا فى أن يخدعوا مصيرهم .

* * *

هؤلاء الأجداد هم الذين حركوا .

الأكواخ ، والأطفال ، والزوجات ، بل حركوا الجميع -

. . . لم يخطف وهج الذهب أبصارهم .

ولم تبهرهم عظمة الحكم الملكى .

* * *

هؤلاء الذين كانوا يسافرون عدة شهور .

بلا خوف من جوع أو عطش .

أو حرارة الصحراء التى تجفف الجلد .

والذين كانو يقاومون ــ فى روحانية ــ رغبتهم الجارفة ـ

لبعض الأعمال التى تميل إليها النفس .

يقاومونها بقوة المنطق ، وسلطان العقل .

والذين كانو على الطريق الحضارى يسيرون .

ويرتلون الأغانى .

التى كانت تستقر فى نفوسهم .

يرتلونها فى جماعات مبهجة .

ومن حولهم العذارى يرقصن .

ويصفقن بأيديهن الملتمعة القوية .

فتسرى على الرمال الملساء .

تلك الأصوات الحلوة الموزونة .

التى تثرى النفس .

وتغمر الصحراء !

وهكذا قدم الشاعر الغانى « ميشيل دى أنانج » قارته بكل أبعادها النفسية ، وبماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها إلى العالم ، وكان فى كل هذا يرد على كل الذين زوروا ماضيه ، وألقوا الظلام على حاضره ، ولم يقف عند هذا فقط ، وإنما قدم لنا « الجوهرة السوداء » فى فهم ، وفنية ، ومزيد من النور .



يعتبر محمد المهدى مجذوب من الشعراء الأول الذين يشكلون الملامح الحقيقية للشعر السودانى الحديث . وخطورة هذا الشاعر أنه لا يصدرعن ثقافةغربية أورؤى غير متمثلة فى الوجدان الجماعى للحياة السودانية ، كما أنه لايصدر عن الواقع الذى يعيشه فقط . وإنما عن التركيب العضوى للمجتمع السودانى .

ولعله الوحيد الذى سجل مفاخر « المهدية » فى صدق ، وإخلاص فى الشعر الحديث فما زال مشدوداً إلى مفاخرها ، وإلى ما أشيع عنها . فهو يصور المهـديين بأن السبح فى أيديهم كانت تقدح بالنور ، وأن نبات « العشر » المعروف فى السودان كان يستحيل فى أيديهم إلى ما يشبه السيوف ، وأنهم كانوا يجدون اسم المهدى مكتوبا على ورق الشجر ، وعلى يض الطيور ، فهو إلى جانب تأثره بأخبار المهدية شديد التأثر بما قرأ من « رسائلها » و« منشوراتها » . وقد ساعده على هذا الإيمان تأثره بالجو الصوفى الذى يسيطر على قطاعات كبيرة من أهل البلاد فهو نفسه مجذوب من مجاذيب « الدامر » الذين يعتبرون مدرسة خاصة فى الشعر السودانى .

والذى تحول الشعر الصوفى على أيديهم إلى قيم روحية عليا بعد ما كان يدور حول مدح شيخ الطريقة أو « الشطح » أو أناشيد الذكر السطحية ، كما انتقلوا به نقلة أخرى إلى ذكر البطولات الحربية ، بعد أن انتقل المثل الأعلى للشخصية

السودانية من الرجل الصوفى إلى الرجل المحارب . وقد كان من أبرزهم فى هذا الشيخ « محمد الطاهر المجذوب » .

وقد تلقى شاعرنا تعليمه فى أول الأمر فى « الخلوة » ثم واصل تعليمه حتى تخرج من قسم الكتبة بكلية « غوردون » القديمة ، ثم باشر حياته أخيرا كمحاسب فى الخرطوم بعد أن طوف فى بلاد كثيرة بالسودان .

فهو شديد الالتصاق بجغرافية بلاده ، وثقافتها . ومن هنا عبر عن كثير من القيم السابحة فى وجدانها فهو يتحدث عن زهاد السودان ويسميهم « فقراء غير هنود » ويتحدث عن « أم الأحاجى » التى كانت جارة له فى حلة « الكراكة » وعن « جبل الختمية » وعن رحلاته فى الجنوب . وأجمل شعره ماصور به التقاليد الشعبية، ومن هذه التقاليد تقاليد الزواج فمن قوله فى قصيدة « قرية قمراء » .

« دلوكة[1] » فى الليل ترتعد ... بكت وأرسل شجوها الكمد
مجنونة نفضت أضالعها ... وتكاد فى أجلادها تقد
ويمد من آهاتها « الشتم[2] » ... شجح الرنين يكاد ينقضم
متربص بالرقص يصرعه ... ويدق فيه كأنه قدم
رقصت مع الأحلام عذراء ... وبرقصها للحب أنباء
تكنى وتعلم كل خافية ... وقلاوبنا لهف وإيماء
ويهيج بالفتيان « شبال[3] » ... وإلى حنين عبيره مالوا
والسوط يأكل ظهر مبتدر ... فى كل جرح منه تأمال
والقرية القمراء كالحبر ... ومكانها غبراء فى المدر

---

(١) إطار من الصلصال يشبه الطبل عندنا .

(٢) طبل صغير يساعد الدلوكة على الامتداد الصوتى .

(٣) حركة الشعر التى تقوم بها الفتاة التى ترقص فى العرس ، ويكافأ بهذه الحركة المعطرة كل من يثبت لضربات السوط من العريس .

بدوية مسحورة رقيت لتفيق من أحلامها الأخر

وتعتبر قصائده الأولى مقصورة على الحياة السودانية ، ولكنه حين زار مصر زيارة عابرة فتن بأمجادها وخلودها . ومن أروع قصائده فيها قصيدة « أم صابر » و « بور سعيد والنصر » .

وقد روى لى أنه عندما هبط القاهرة طوف به أصدقاؤه فى أحيائها المترفة وحملقوا فى وجهه قائلين «هل أعجبتك القاهرة ؟» فكان رده أنه لم يرها لأنه يريد القاهرة الحقيقية . فذهبوا به إلى حى الأزهر ، ودخلوا به إلى واحد من مطاعمه الشعبية : فأحس بالزهو ، والسعادة . وكان من أثر هذه الرحلة الشعبية تلك القصيدة المصورة « عشاء » ولا نحسب أن أحداً سبقه إلى وصف أحد مطاعم القاهرة بهذه « الروح الجياشة » وبهذه الأبعاد المحددة للحياة الشعبية فى هذا الحى :

هات فولا بالزيت فى أول الليل واذهب به الشجا عن لهاتى
لمعت كل حبة مثلما تلمع فى البدر درة فى الفلاة
هاته والرغيف والكوز والقلة . أشهى لأعينى من مهاة
« قلة » جيدها ثقيل ، وتعيه بردف مدماج كالصفاة
بعثت فى يدى من نداها ومالت بفم بارد النطاف مؤات
من جوارى « هارون » فى ملكه السمح إلى كل شاعر مشرفات
جلس « القدر[1] » كثرى يتباهى فى سامر وحداة
بطنه مائل به وقفاه لامع كالأثيم فى الخلوات
وحواليه قومه من صناع يصطفيه وحائمين سقاة
رب إنى قنعت فارحمه لقد خالط الهوى فى رفاتى

(١) قدرة الفول .

كان خصم النبى موسى أما أرجع قوم الكليم بعد انفلات

* * *

.. على أنا نراه أخيراً قد أحس بالمشاعر الإفريقية وبالعبء الواقع على هذه القارة فجاء شعره ملونا بواقعها وصراعها ، ومن ثم نستطيع أن نقول : إنه الشاعر الوحيد فى العربية الذى يصدر عن ضمير القارة فى حب وإخلاص . فهو لا يصدر عن الحقد والشعور بعقدة اللون ، وإنما يصدر عن الاندماج بهذه القارة والإحساس بها ، وهذه الوارثات التى تجرى فى عروقه .

عدى من الزنج أعراق معاندة — وإن تشدق فى إنشادى العرب

..وقد استطاع أن يقدم لنا صورة من أمنياته التى يحب أن يكون عليها فى قوله :

فليتى فى الزنوج ولى رباب — تميل به خطاى وتستقيم

وفى حقوىّ من خرز حزام(١) — وفى صدغى من ودع نظيم

وأجترع « المريسة » فى الحوانى — وأهدر لا ألام ولا ألوم

وأسرع فى الطريق وفى عيونى — ضباب السكر والطرب والغشوم

طليق لا تقيدنى قريش — بأحساب الكرام ولا تميم

وحين يعشق نراه يعشق « حبشية » من صميم إفريقية :

وبدت ستائر بيتها — وضاءة بين الظلال

غادرت عينى « أين بابك يا — محطمة الرجال » !! ؟

ورجعت أفزع للكرى — كى أستريح إلى مراح

ونهضت أسمعه الملا — مة وهو مشتعل الجراح !!

وهو لا يقف عند هذا الجانب اللاهى من الحياة الإفريقية ، وإنما يتعداه إلى مشكلاتها فيقول فى التبشير الذى يجعل ستاراً لتدمير روح الشعب :

وإن عجبت فمن « قسّ » أخى ورع — لدى الكنيسة لم تعلق بها الريب

---

(١) نطاق مصنوع من دقيق الخرز الملون ويسمونه فى جنوب السودان (السكسك) .

إن كان يدعو إلى عيش فشرعته   قدس الأنا جبل فيها الحب والقرب
إنى لأعرض وجهى ثم أسأله   عن لون وجهى بالآلام ينتقب
فكيف يمنع قلبى عن مواطنه   وكيف مثلى فى السودان يغترب

كما يتعرض لكفاح القارة ودورها الإيجابى ، ويدعو للكفاح العنيف الذى لايعترف برحمة الأديان :

بنى وطنى للنار فى كل بقعة   لسان دخان فى السموات أسود
لكم جيرة فى (كينيا) قد تمردوا   وأشربهم «جومو[1]» سلاف التمرد
طوى الغاب من أسواره كل ضيغم   أبى الدم إلا ملء خد مورد
فلا ترحموا لم تبق فى الأرض رحمة   وإلا هلكتم بين عيسى وأحمد

وهكذا نرى الشاعر قد عبر عن التجارب الضخمة التى أثرت فى أعماق بلاده ، والتى تعيشها وتستشرف إليها مع محافظة على « الشكل » القديم الذى تزدهر به العربية ، وقد كانت وسيلته إلى ذلك المشاهد المتكاملة الحية ، فكل كلمة يسوقها ، وكل نغمة ينقلها شديدة الاتصال بطبيعة المشهد العضوى ، دون أن يفقده الوزن والقافية السيطرة التامة على « وحدة المشهد » .

ونستطيع أن نرى هذا فى اللوحة التى رسمها « لغوردن » وهو محاصر فى الخرطوم ينتظر النجدة :

و « غردون » أمسى لدى شرفة   بمنظاره كم يعيد النظر
وقد أمسك النيل أمواجه   وأخفى عليه وجوه الخبر
يرى « الغرب » نارا على ومضها   يهز الرماح « رعاة البقر[2] »
وجاش « النحاس[3] » لدى ليلة   من الخيل يركب فيها القدر

---

(١) بطل كينيا العظيم جوموكينياتا .
(٢) يقصد أنصاره الذين كان أكثرهم من غرب السودان وهم « البقارة » .
(٣) طبل الحرب فى السودان .

ظلام و« غردون » فى صدره ظلام الفــلا وسكون الحفــر
تغـــنى الرياح بأسمــاعه هتــاف الدراويش بالمنتظر[1]
ويبدى له الليل من حوله بريق السيوف وضوء السور
وفى عينــه أفق أزرق هو الأفق يجهل معنى البصر
وأيأسه الفجــر من نجدة على النيل تنخره كالحجر
يراه فيحســبه صــورة مضيعة فى رحاب الذكر

وقد نرى فى بعض صوره ظلالا من التقليد كتلك الصورة التى رسمها فى قصيدة « النصر » :

فذلك « رمسيس » فى جنده يذودون عن ربهم بالنبال
لقد خرجوا من رموز النقوش على الصخر أطلقهم من عقال

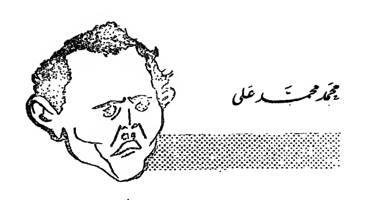
ففيها تأثرات من الصور التى كانت تخرج من كأس الشاعر على محمود طه . والتى يمتد تأثرها هى الأخرى إلى قصيدة أبى نواس الذى يقول فيها :

فللـكأس مازرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

ومهما يكون من شىء ، فالشاعر محمد المهدى مجذوب يثرى الشعر السودانى بتلك التجارب المهدية التى ترجع فى حقيقتها إلى أفـكار الشيعة ، والتى ترجع كذلك إلى تأثره العميق بالتراث الدامع الذى تعمقه عن هذه الأفـكار التى تـكثر أكثر ما تـكثر فى السودان . كما أن انعطافه نحو الإفريقيين شىء طبيعى فى نفسه ففى عروقه الشىء الـكثير من دمائهم ، وفى قلبه الشىء الـكثير من عواطفهم .

---

(١) المهدى المنتظر المعروف فى السودان باسم محمد أحمد المهدى .



يعتبر الشعر فى السودان من أنضج الأشكال الأدبية هناك ، ومازال الشعراء هناك هم النجوم الساطعة فى سماء الأدب ، والذين يلتفت إليهم الناس كلما احتاجوا إلى إثراء عواطفهم والإحساس بأنفسهم ، وبخاصة أنا نرى هـذا الشعر يرتبط بالأرض وبالحياة هناك أشد الارتباط ، فالشاعر السودانى الذى تعمق الحياة هناك وساعدته ظروفه على الارتباط بالطبيعة والحياة السودانية هو الشاعر الذى يمكن أن نقيس منه أعماق النفسية السودانية .

ومن هؤلاء الشعراء الذين عاشوا السودان سماء وأرضاً ، وأحداثاً الشاعر « محمد محمد على » فرغم أنه أقام فى مصر مدة تعليمه العالى ، ورغم أنه زار بعض البلاد العربية الأخرى إلا أنه من هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن نحكم على شعرهم بأنه « سودانى » فأحداثه ، وأجواؤه ، وحرارته ، وأساليب تعبيره كلها سودانية ، وهذا بلا شك سمة من سمات الصدق الفنى ، لأن العالمية فى الفن — وإن لم يكن هذا مجال الحديث عنها — ترتكز تماماً على أسس محلية ، فالمجتمعات الإنجليزية ، والألمانية والفرنسية ، والروسية ، والنرويجية من وراء أعمال شكسبير ، وبرنارد شو ، وجيته ، وزولا ، وسارتر ، وتولستوى ، وتشيكوف ، وابسن ، ولعل هـذا هو الفرق بين عالمية العلم ، وعالمية الفن .

ومهما يكن من شىء فالشاعر يمكن دائماً أن يعطينا بلاده بطبيعتها وظروف الحياة بها حين يقول :

وجبت البوادى بين الرفاق وحيد المشاعر والفكرة
شهدت الصباح بها والمساء وموج الأصيل على الخضرة
ورعت الظباء تخذن « العدار[1] » مجناً من الوبل ذى المرة
. . بكلب جرىء شديد المراس هزبر هصور بلا عفرة
فطرن وطار فما إن ترى سوى الطين ينزو مع الطفرة
ونحن من الوحل فى شدة نزل فنسقط فى الحفرة
فلما مللنا « الطراد » وثبنا إلى الحلم ، وهو مدى الحسرة
ظفرنا بتيس كليم الإهاب مليح الملاحظ والغرة
أبى عيوف شموس الفؤاد إذا شام ظلا من الذلة
وهل أرضعته سوى حرة تخطر فوق الربا الحرة
تهاوت أمانيه فى غفلة فأقوت مراعيه فى لحظة
وأمست حلائله جازعات يعدن المشاهد فى حيرة
. . ترامى رفاقى على لحمه وبت كئيباً أخا نفرة

فالشاعر يقدم هنا فنا قديما من الفنون العربية — لم يعد له وجود الآن — هو فن « الطراد » حين يخرج الشاعر مع رفاقه إلى الصيد فى مظانه ، وليس فى هذا مجرد تقليد لفن الطراد العربى القديم فقد تصدق هذه الدعوى حينما يتعرض لهذا اللون من الفن شاعر مصرى ، ولكن حينما يتعرض له شاعر سودانى تساعده بيئته ، وظروف حياته على هذا اللون من الصيد نعرف أن الأمر ليس فيه التقليد ، وإنما فيه الأصالة كل الأصالة .

والشاعر حساس بكل مايلم بوطنه حتى هذه الوفود الإفريقية المسلمة التى تعبر بلاده فى طريقها للحج فهو يقول :

---

(١) نوع من الأذرة البرية .

حمدت القرى من كرام التجار كبار الجفون على العسرة
يطوفون حولى طواف الحجيج سعى من «نجيريا[1]» إلى الكعبة

وصادق فى الوقت نفسه حين لا يتبع التداعى الجمالى فيما يعرض من صور الحياة من حوله ، وحين يقدم الصور فى بساطة محببة لا يثقلها لون متعمد من ألوان البلاغة الزخرفية ، فالبلاغة عنده نابعة من الموضوع ومتطورة معه :

على نشوة فى الديار ترانى أروح وأغدو على خيمتى
وأحلى من الكرم الحاتمى وما قد أصبت من المتعة
.. مراح فتاة بفجر الشباب تضىء عشاء دجى « الحلة[2] »
يروعك منها قوام وصدر طوى الثوب عنه سنى الفتنة
ونهدان ماعرفا لامسا سوى نضحة الماء من قربة
حبتها البداوة من سحرها فجاءت مثالا من الروعة

والشاعر لاينسى تقاليد بيئته ، فهو يقدم دائماً شريحة حية تتحدث بالأعماق النفسية لهذا الشعب ، فحين يقص علينا قصة نفسه فى قصيدته « قصة شاعر » نراه يقول :

كما الأطفال قد ولدوا نبى الشعر قد ولدا
فلم يفلق له قمر ولا ملك له سجد
نعم قد هلّل الأهل وقاموا حوله حشدا
وتمتم جده برقى ترد الكيد والحسدا
وسار دم الخراف على رحاب الدار فى سرف
وفاح الطيب مثل شذى زهور الروضة الأنف

---

(١) دولة إفريقية استقلت فى اكتوبر من عام ١٩٦٠ .
(٢) الحى أو القرية .

وزغـرد نســوة الحى وشـاع البشر فى الغـرف
وقد حملت موائدهم بمــؤتلف ومختـلف

* * *

لقـد صـنعوا كما صـنعوا بمـولد صــنوه الأكبر
ولو علمــوا بأن له بـكل خميــلة منـبر
ومــلء دمائه نغــم وتحت لســانه مزهـر
لـما زادوه تـكرمـة ولا حفلوا به أكثر !

ونحن نراه يقصد إلى الـكلمة ذات المدلول فى الحياة ، حتى لوابتعد عنها « الشعر الأنيق » فهو يذكر الطار ، والمداح ، والحفير ، والعدار ، والـكسرة ، وشيكان لأن كل هذه الـكلمات تضرب بجذورها ، وصداها فى النفس السودانية ، وإن لم يكن بعضها مستعملا فى العربية ، وأعتقد أن هذا من سمات الحلية الصادقة لأن « الـكلمة » ما دام عليها عرق الشعب ، وما دامت قد واكبت تاريخه ، يصبح من حقها أن تعلن عن نفسها ، كخلية حية من خلايا العمل الفنى الصادق .

ونحن نرى الشاعر يتبع نفسه ، وعواطفه فى شعره ، فنرى الإيمان مضيئاً فى بعض قصائده ، والشك ناتئاً فى بعض آخر ، كما نراه يقف من مصر موقفاً معادياً فى فترة ما ، ثم سرعان ما يستعيد نفسه ويغمرها بحب البلاد التى لاقى فيها العلم ، والثقافة ، والإخلاص ، حتى نراه حين يطبع ديوانه « ألحان وأشجان » يرفع كل القصائد التى عرض فيها بمصر فى فورة من فورات الغضب ، بل وفى القصيدة الواحدة كما فى قصيدته « عتاب النيل » التى يقول فيها :

أبا الخير عندى من عتابك قصة روتها عن البيد الظماء قوافل
عطشنا وعشنا فى ربوع جديبة تمر بها عجلان ركبك حائل
نعيش على التأميل منك وتنحنى علينا صغاراً أمهات نواحل
شرقن من الدمع الحبيس وأترعت لهن من الدمع الغزير مناهل

فهن من البأساء غير عوابس وهن من الأدواء صفر ثواكل
منازلنا مثل القبور فما بها ضياء بجنح الليل فهى مجاهل

فقد رفع منها الأبيات الآتية :

تهضمنا جيراننا وبدت لهم من الغاصب الغربى منا مقاتل
ضعاف تقووا بالعدو على أخ وعاشت لهم فيما بناه معاول
أبوا أن يذيقونا من الماء جرعة وضاق به من ساحل الروم ساحل
وقد أورقت فى أرضهم كل صخرة وفى أرضنا ترب « البطانة » ماحل
أحبك حبي للحياة وإن أبى لك الجود والأنعام حب مخاتل

وهكذا نراه يعود إلى مصر ، ويحتضن قضاياها ، ويصرخ من بلاده حين يقع الاعتداء الثلاثى عليها فيقول :

أحنو عليك بقلب شاعر وأذود عنك بعزم ثائر
لك فى فـؤادى موطن رحب على الأيام عامر
لولاك ما سطعت على أكواخنا زهـر المنائر

وينشد فى مؤتمر الأدباء العرب الذى أقيم فى القاهرة :

فلى هنا أخوة صادقون ولى مستراد ، ولى مضطرب
ولى معهد قد حبانى حباء به قد عشقت اصطحاب الـكتب
فيا مصر أنت الحبيب المفدى ويا مصر أنت الهوى المصطخب

ثم نراه يلتحم فى الموجة العربية الـكبيرة ، ويدعو إلى حاضرها ، ويبشر بغدها ، ويصبح واحداً من دعاتها الـكثيرين فى السودان ، ويظهر هذا فى قصيدته التى أنشدها فى مهرجان الشعر بدمشق عام ١٩٥٩ .

عـربى وخافقى عـربى ولسـانى ومرجـلى وفنائى
مجـد قومى عقيدتى وصباحى وسبيلى إلى الذرا الشماء

ما عرفنا غير العروبة من نور يجلى حنادس الظلماء
كرم الله أرضها فهى بعث وانطلاق ، ووقدة من مضاء
ملء عينى عقبانها تزحم الشمس وتزهو راياتها فى الضياء

* * *

إن شعر « محمد محمد على » يعتبر ثمرة طبيعية لهذه الحياة التى عاشها فى السودان فحين نعرف أنه ولد فى حلفاية الملوك عام ١٩٢٢ لأسرة عريقة تتصل بناصر آخر ملوك العبد لاب ، والسلطان المتصوف . « عجيب الحاج المانجلك » ،

وحين نعرف أنه تلقى تعليمه فى المعهد العلمى بأم درمان ، ثم قدم إلى مصر ، حين نعرف ذلك . . نعرف كيف خلصت نفسه لبلاده ، وقضاياها ، وعروبتها ، وكيف استطاع أن يؤكد وجوده ، كواحد من الصف الأول فى السودان ، الذين يستمدون البلاغه من المضمون ، ويعتنقون مذهب البساطة فى التعبير ، وينظرون إلى الطبيعة والناس من حولهم نظرة واقعية .

وما أجدرنا بأن نتلمس السودان — حين نريد الوصول إلى أعماقه — فى هؤلاء الشعراء الذين احترقوا بشمسه ، وانصهروا فى أحداثه ، وعاشوا فى بساطته ، ففى هؤلاء نرى وجه السودان الحقيقى ، أما هؤلاء الذين يصرخون باسمه فى أكثر من مكان فيمكن أن يكونوا أى شىء إلا أن يكونوا شعراء سودانيين .

. . ومن هؤلاء الشعراء الذين يتحدث السودان من أفواههم الشاعر « محمد محمد على » .

هذا الشاعر الذى شارك فى قضية بلاده مشاركة فعالة ، وانصهر فى أحداثها ، ورصد دبيب الكراهية ، وانطلاقات الفرح فى تاريخ هذه البلاد التى اهتدت إلى أسرار ماضيها وأشواق غدها .

والذى لم ينعزل فى الوقت نفسه عن طبيعتها الحارة ، وقيمها الجمالية ، وأساليبها الخاصة بحياتها التى تنحنى عليها من قديم بحب ، وفهم ، وصدق .

وفى الوقت الذى سيكتب فيه تاريخ هذه الفترة الأخيرة الحاسمة فى تاريخ السودان سيكون من الأسماء اللامعة فيه « محمد محمد على » .

ولـيم كونستون

ما أكثر ما تذخر إفريقية الآن وبخاصة في الغرب بالقصة المستكملة لكافة عناصر القصة الفنية ، بحيث يمكن القول الآن بأن القصة الإفريقية أصبحت من حيث «التكنيك» لاتقل عن القصة العالمية ، بالإضافة إلى عناصر الانسجام ، والتناغم ، والإيقاع التي يتميز بها الأدب الإفريقي بعامة .

على أن القصة الإفريقية لم تصل إلى هذا المدى إلا حينما تخلصت من ظاهرة التقليد التي ربطتها فترة كبيرة بالقصة الغربية ، ثم تعمقت الحدث ، وتخطت الخطوط السطحية للشخصية بعد أن كانت تقف دائماً عند مرحلة الوصف للقطاعات والشرائح التي تدور حولها الشخصية ، ذلك لأن الوجه الأسود ، والبيئة الفطرية ، وإحياء التقاليد لم يعد يقنع مالم يرتبط بعنصر الصراع ، ويجعل كل هذه العلاقات في خدمة الإنسان ، أما تقديمها في مشاهد متتابعة فشيء لايخدم الفن في شيء .

على أن ما يميز القصة الإفريقية الآن بصفة عامة أنها تتكيء على الأدب الشعبي ، وتستوحي منه الرموز ، كما أنها ترتبط بالأحداث ، وتحليل الشخصية الإفريقية التي عاشت في الظل، ثم انتقلت تدريجيا إلى نور الحياة ، وعلى جبهتها حبات العرق .

ونحن نرى هذا واضحا في قصة «منطق الفيل» للزعيم الكيني «جوموكنياتا» ، والتي تدور حول فيل اتخذ له من بعض الآدميين أصدقاء ، ثم دفعته العاصفة إلى أن يلتجيء إلى كوخ واحد من هؤلاء الأصدقاء حيث طلب منه ــ على صغر كوخه ــ أن يدخل فقط خرطومه ، ثم ظل يدخل حتى وجد نفسه يملأ الكوخ بينما صاحبه يرتعد في وسط العاصفة ، وحينما شرح مظلمته للأسد الذي أقبل على صراخه وعده بتاليف لجنة ، وأمام اللجنة ذكر الفيل أنه حفظ الكوخ من هول العاصفة ، وكان أن رأت

اللجنة أن حجم الرجل ضئيل لا يملأ الكوخ ، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر . فليست هذه القصة سوى قصة البيض والأرض فى كينيا !

كما نرى فى شخصيات الكاتب الكاميرونى « مونجوباتى » رعشات الانتقال من المجتمع المستعبد إلى المجتمع الحر ، وتحطيم كثير من القيم والأشكال القديمة وفى الوقت نفسه تجد عند« أزابوتو » ، و« عبد الله سادجى » ، و« عثمان سمبين » ، و« إيسابوتو » ، و « فرديناند أويونو » الخوف من المدينة ، والاندماج فيها ، ورفض الأوضاع المفروضة ، والانصهار مع القوى العاملة ، ومعالجة المشكلات التى ترتبت على الصراع الأوروبى الإفريقى كالأشكال الحديثة فى الحياة ، والأطفال الذين ولدوا من آباء بيض وأمهات سود . . الخ

على أن أقوى الأشكال الأدبية الموجودة الآن هو الترجمة الشخصية ، فالكاتب يضفى سماته أو بعضها على شخصية البطل فى القصة ، ومن هذه القصص قصة « الصبى الأسود » لكامارا لاى ، و « حياة خادم صغير » لفرديناند أويونو على أن رائد هذا النوع من القصص يعتبر بحق « وليم كونتون » الذى ترجم لحياته فى قصته « الإفريقى The African » .

والذى يعتبر بحق من ألمع كتاب القصة فى غرب القارة الإفريقية ، فظهور هذا النوع بغزارة يعتبر رد فعل للحظات الضعف فى المجتمع الإفريقى الذى قاسى الكثير على يد المستعمرين ، فما كادت هذه البلاد تنادى باستقلالها حتى أخذ الكتاب ينادون باستقلالهم كذلك ، وينحنون على أنفسهم لاستخلاص ما فيها من عبرة ، ثم تقديمه للجيل الجديد الذى تلمع على جباهه الحرية .

ففى قصة الافريقى نرى «وليم كونتون» يطلق على نفسه اسم « كيزمى كامارا » ومن خلال هذه الشخصية يبكى ، ويتألم ، وينتصر ، فقد رأى نفسه يولد فقيرا ، ويتكلم لغة الهوسة ، وينقب فيما وراء هذه اللغة من ثقافة فلا يجد مايطفى ظمأه ، اللهم

إلا تأثرها باللغة العربية ، ويحاول أن يصل إلى كنوز اللغة العربية ولـكنه لا يستطيع ، ومن ثم يتحول إلى مدارس الإرساليات التى تغص بها بلاده ، ثم إذا هو سعيد باللغة الإنجليزية ، وما يكاد يتقنها حتى يراوده حلم بالذهاب إلى إنجلترا ، وتساعده الظروف فيرى نفسه بين هذه البلاد الجديدة ، وتحدثه نفسه بالاندماج فى هذا المجتمع الأبيض وتساعده الظروف مرة ثانية حين يلتقى بفتاة حسناء تسمى « جريتا » من جنوب إفريقية ، وتقبل عليه هذه الفتاة ، فتعطيه من حنانها الـكثير ، وبينما هما فى غمرة هذا الحب إذا بالأصوات تتعالى من حوله بأنه ليس من حقه أن يحب فتاة بيضاء ، فـكانه منها يجب أن يظل دائما مكان الخادم ، ويستغرب الحبيبان وينظران بذعر فقد استيقظا على ثورة عاتية حولهما لأنهما لم يحسا فى غمرة هذا الحب بالأصوات الهزيلة التى كانت تسخر منهما فى كل لقاء ، ولـكن الأصوات قد كثرت ، والأيدى قد امتدت ، والعيون قد امتلأت بالحقد ، والتوعد بالموت ، وينحنى كل منهما على جراحه ، ولـكنهما يلتقيان ، وفى واحد من هذا اللقاء تقتل جريتا انتقاما منها لميلها إلى هذا الرجل الأسود ، وتموت بين عينيه !

ويعود « كيزمى » إلى بلاده ، ويتمكن من الوصول إلى منصب كبير فيها ، ثم يرى نفسه يتوجه على رأس فرقة كبيرة للانتقام من حبه الضائع فى جنوب إفريقية ، وإذا به يكتشف أنه كرس كل يوم فى ماضيه للحظة الانتقام هذه ، وأن هذا الحب كان يجب أن يطهر أعماقه من كل هذه الألوان من الحقد ، وأن الأجدر به أن يحول هذه الطاقة إلى السلام والحرية ! وتلك هى قصته التى عاشها ثم سجلها .

. . لقد قيل إن الآباء الذين نهلوا من الثقافة الفرنسية ارتدوا فى عنف إلى التنقيب عن كل ماهو إفريقى فى ثقافتهم ، وإن الذين تعمقوا فى الثقافة الإنجليزية لم ينسوا تقاليدها وإنما مزجوها بطابعهم الإفريقى ، ويعتبر « وليم كونتون » تطبيقا عمليا لهذا النوع الأخير من الأدباء ، لقد قال الملحق الأدبى للأوبزرفر البريطانية عن هذه القصة حينما ظهرت فى أواخر عام ١٩٦٠ « إن كونتون بإصداره هذه القصة

الطويلة المتعمة قد استطاع أن يحتل لنفسه مكانا مرموقا بين الكتاب الإفريقيين المعاصرين مثل آموس توتولا وتشينيو آستيني وغيرهما من كتاب غرب القارة الإفريقية الذين يقرأ لهم الآن بالإنجليزية ، والذين لايقل إنتاجهم من حيث الشكل أو المضمون الواقعى الذى يعبر فى صدق عن البيئة الإفريقية ، وظروف الحياة فيها . أقول لايقل إنتاجهم من حيث الروعة عن أعظم المؤلفات الأوروبية التى تقرأ اليوم فى أوروبا وأمريكا » .

وهكذا تؤكد الشخصية الإفريقية نفسها اليوم فى كافة المجالات ، فعندها الكثير والجديد فى الوقت نفسه الذى يمكن أن تقوله للعالم .

آموا زوكوسى

تنمو اليوم عمليات الخلق الفنى ، وتشق طريقها فى ثقة وإخلاص للحلية الافريقية التى تتسم بروح العالمية الإنسانية ، فما يكاد البلد الافريقى ينال استقلاله ، ويمارس حرياته حتى تلمع فى ضميره العبقريات ، وتزدهر الروح المبدعة فى كل فنانيه، والذى يقارن بين الأعمال الفنية — كل الأعمال الفنية — قبل الاستقلال وبعده فى أى بلد إفريقى يجد فرقا واضحا وحاسما فى الوقت نفسه .

فكل الأعمال الجديدة تتميز بحرية الخطوط ، وعمق اللقطة ، وصدق الإحساس ، ثم أخيرا بهذا الشىء الذى يضىء داخل العمل الفنى وهو الحرية !

ومن هؤلاء الفنانين الذين ازدهرت روحهم ، واخصب ضميرهم عقب استمتاع بلادهم بالحرية النحات الغانى « آموا زوكوسى » الذى يتمتع بأنامل بليغة — إن صح هذا التعبير — يستطيع بوساطتها تشكيل الحركة فى الوجه ، والاختلاجة فى الروح ، ثم إضافة اللمسة المحلية للكتلة بحيث يمكن للانسان رؤية حشد المشاعر المشتركة فى الملامح ، والأحاسيس فى كل وقفة ، وتدويرة ، ولمسة . . للشعب ، كل الشعب فى غانة !

إن أول ما يتذكره فى حياته هو أنه كان يضرب من والديه لأنه كان يحول كل شىء يقع تحت يديه إلى تمثال ، فهو مرة يلهو بعجين « الموز » وأخرى يعبث بمحتويات المنزل ، وقد ينزع قالبا من الحائط ليجعل له ملامح واحد من زملائه فى اللعب ، ثم ينهال عليه ضربا إذا كانت هذه الملامح لعدو ، أو يميل عليه تقبيلا إذا كانت لواحد من أصدقائه ، ومن أجل هذا دعى أكثر من مرة بالمجنون ، وضرب بنفس

« القواب » التى كان ينتزعها من جدار المنزل ، والتى كانت تأخذ فى بعض الأحيان شكل أبيه أو أمه .

وقد أرادا أن يتخلصا منه بالذهاب إلى المدرسة ، ونجحا بالفعل ، وهناك استطاع ممارسة هوايته فى حب ، وتوجيه لأنه كان موفقا فى دروسه الأخرى ، ولأنه كان يضيف إلى محتويات المدرسة أشكالا مبسطة عن الطبيعة من حوله ، إلا أنه حول طاقته تماما إلى دراسة كل ما يتصل بفن « المثالة » الذى يعتبر من أبرز الفنون الإفريقية .

وقد عرف أول ماعرف أن العرب حين قدموا إلى إفريقية لم يهتموا بهذا الفن ، بل إن كثيرا من القبائل التى اعتنقت الإسلام تخلصت من تماثيلها ، لأنهم لم يعودوا فى حاجة إليها ، فالتمثال الذى يحمى الحامل ، والطفل الذى يولد حديثا ، والطعام والمحاصيل ، ثم أخيرا التمثال الذى يتعبد له ..لم يعد الإفريقى فى حاجة إليه ، ومن هنا تخلص الإفريقى المسلم من هذه الأنواع من التماثيل التى كان يعتقد أن لها قوة وتأثيرا مباشرا فى الحياة ، والتى كان يعتقد أنها أصبحت « روحاً » مجسدا يستخدم فى السحر وحفظ الإنسان من الشرور ، والإخبار عن المستقبل ، وعبادة الأجداد ، كما يعتبرها تاريخاً مجسداً لأنواع الحياة التى مروا بها .

وذلك لأن الإسلام قد خلص التمثال من قدسيته ، وهدم ما وراءه من عقيدة ، وإن كان المؤرخون الأجانب يتناسون هـذا ، ويذكرون أن الإسلام قد قضى على هذا الفن فى البلاد التى انتشر فيها !

ومهما يكن من شىء فقد أدرك هـذه الحقيقه « آموا روكوسى » ، واقتنع بأن « التمثال » يجب أن يخلص للحياة ، فيسجل واقعها ، ويسهم فى تطويرها ، وبالتالى تخليدها ، وقد تأكدت هذه الحقيقة فى نفسه حينما شاهد بعض نماذج هذا الفن تدخل معركة القارة ، وتجسم صراعها مع المستعمرين ، فقد رأى النماذج الأولى التى صورت الرجل الأوروبى كرجل محايد ، متفتح على الحياة من حوله كما فى تمثال « التاجر والملاح » ،

ثم رأى النظرة إلى هذا الأوروبى تتغير كما فى تمثال « فى السفر » الذى دم فيه الرجل الأوروبى متغطرسا عنيدا ، يده على بندقينه ، وعيناه ملتمعتان ، ووجهه يتألق بالنعيم . وهو ــ فى الوقت نفسه ــ محمول بوساطة إفريقيين مجهدين يكادان يسقطان إعياء ، وبغضا وكراهية !

كما رأى أن فن بلاده ينعكس بصورة واضحة على أعمال بعض الفنانين الكبار مثل بيكاسو ، وبراك ، وماتيس .

وبكل هذه الشحنة من الفن ، والفهم ، سار « آموا روكوسى » بثقة فى طريقه حتى لقد أصبح بيته لايتكون من جدران ، وإنما من تماثيل توضح القامة الإفريقية المشدودة ، وملامح تحتفظ بالابتسام إلى جوار الحزن . ولمسات تعطى صورة واضحة عن أعماق الشعب الإفريقى ، وبساطته ، وثقته فى نفسه .

وكثيرا مايزوره والداه ويذكران له وهما يتضاحكان « بأن الضرب لم يؤثر فيه » ولكنه يرد على هـذا الضحك بضحك آخر يذكر من خلاله « أنه يجب أن يظل يضرب حتى يخلق مدرسة ذات اتجاه إفريقى فى فن المثالة بأكرا ! » .

وغانة اليوم تقف بإعجاب أمام تمثال ضخم للدكتور كوامى نكروما ، من إبداع « آموا روكوسى » . . تمثال لم يوضح فيه ملامح الزعيم الخاصة ، قدر ماوضح فيه ملامح غانة الجديدة المتحررة . فالفنان الإفريقى اليوم يمزج القائد بالشعب بحيث لا يمكن التفريق بينهما ، فترى القائد حين نرى الشعب ، ونرى الشعب حين نرى القائد وبهذا ينتقل الفن إلى مخاطبة الوجدان الجماعى . . وتتأكد خاصية أخرى من خصائص الفن الإفريقى الذى خاص التمثال من القوى السلبية ، بعد أن وضع مكانها . . قوة الشعب !

فهـــرس الـكتاب





١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة

